Haii ibn Jokzān.

رسالة حي بن يقظان في أسرار الحكمة المشرقية استخلصها
من درر جواهر ألفاظ الرئيس أبي علي بن سينا
الامام الفيلسوف الكامل العارف أبو
جعفر بن طفيل أسبل الله عليهما
رواق رحمتــه وعمهــما
بواسع مغـفرته
آمـين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الشيخ الفقيه الامام العالم الفاضل الكامل العارف أبو جعفر بن طفيل رحمة الله عليه * الحمد لله العظيم الاعظم * القديم الاقدم * العليم الاعلم الحكيم الاحكم * الرحيم الارحم * الكريم الاكرم * الحليم الاحلم * الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم * وكان فضل الله عليك عظيما * أحمده على فواضل النعماء * وأشكره على تتابع الآلاء * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله صاحب الخلق الطاهر * والمعجز الباهر * والبرهان القاهر * والسيف الشاهر صلوات الله عليه وسلامه وعلى آله وأصحابه أولى الهمم العظائم * وذوى المناقب والمعالم * وعلى جميع الصحابة والتابعين الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا * سألت أيها الاخ الكريم * الصفى الحميم منحك الله البقاء الابدى * وأسعدك السعد السرمدى ان أبث اليك

ما

ما أمكنني بثه من أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الامام الرئيس أبو علي بن سينا فاعلم ان من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها ولقد حرك مني سؤالك خاطرا شريفا أفضى بي والحمد لله الى مشاهدة حال لم أشهدها قبل وانتهى بي الى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان لانه من طور غير طورها وعالم غير عالمها غير ان تلك الحال لما لها من البهجة والسرور واللذة والحبور لا يستطيع من وصل اليها وانتهى الى حد من حدودها ان يكتم أمرها أو يخفي سرها بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل وان كان ممن لم تحذقه العلوم قال فيها بغير تحصيل حتى ان بعضهم قال في هذه الحال سبحاني ما أعظم شاني وقال غيره أنا الحق وقال غيره ليس في الثوب الا الله وأما الشيخ أبو حامد الغزالي رحمة الله عليه فقال متمثلا عند وصوله الى هذه الحال بهذا البيت

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وانما أدبته المعارف وحذقته العلوم وأنظر الى قول أبي بكر بن الصائغ المتصل بكلامه في صفة الاتصال فانه يقول اذا فهم المعنى المقصود من كتابة ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن ان يكون معلوم من العلوم المتعاطاة في رتبة وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى في رتبة يرى نفسه فيها مباينا لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية وهي أجل من ان تنسب الى الحياة الطبيعية بل هي أحوال من أحوال السعدا منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية بل هي أحوال من أحوال السعدا خليقة ان يقال لها أحوال الهية يهبها الله سبحانه وتعالى ممن يشاء من عباده وهذه الرتبة التي أشار اليها أبو بكر ينتهي اليها بطريق العلم النظري والبحث الفكري ولا شك انه بلغها ولم يتخطها وأما الرتبة التي أشرنا اليها نحن أولا فهي غيرها وان كانت اياها بمعنى انه لا ينكشف فيها أمر على خلاف ما انكشف في هذه وانما تغايرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بامر لا نسميه قوة الا على المجاز اذ لا نجد في الالفاظ الجمهورية ولا في الاصطلاحات الخاصة أسماء تدل على الشئ الذي يشاهد به ذلك النوع من المشاهدة وهذه الحال التي ذكرناها وحركنا سؤالك الى ذوق منها هي من جملة الاحوال التي نبه عليها الشيخ أبو علي حيث يقول ثم اذا بلغت به الارادة والرياضة حدا ما عنت له خلسات من

اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه ثم انه تكثر عليه
هذه الغواشي اذا أمعن في الارتياض ثم انه ليوغل في ذلك حتى يغشاه في غير
الارتياض فكلما لمح شيأ عاج منه الى جناب القدس فيذكر من أمره أمرا فيغشاه
غاش فيكاد يرى الحق في كل شئ ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته
سكينة فيصير المخطوف مألوفا والوميض شهابا بينا وتحصل له معارفة مستقرة
كأنها صحبة مستمرة الى ما وصفه من تدريج المراتب وانتهائها الى النيل بان يصير
سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق وحينئذ تدر عليه اللذات العلى ويفرح
بنفسه لما يرى بها من أثر الحق ويكون له في هذه الرتبة نظر الى الحق ونظر الى
نفسه وهو بعد متردد ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وان
لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة وهناك يحق الوصول فهذه الاحوال التى
وصفها رضى الله عنه انما أراد بها ان تكون له ذوقا لا على سبيل الادراك
النظرى المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات وانتاج النتايج وان أردت مثالا
يظهر لك به الفرق بين ادراك هذه الطائفة وادراك سواها فتخيل حال من خلق
مكفوف البصر الا انه جيد الفطرة قوى الحدس ثابت الحفظ سديد الخاطر فنشأ
منذ كان في بلدة من البلدان ومازال يتعرف أشخاص الناس بها وكثيرا من
أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها بما له
من ضروب الادراكات الأخر حتى صار بحيث يمشى في تلك المدينة بغير دليل
ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه بأول وهلة وكان يعرف الالوان وحدها
بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها ثم انه بعد ان حصل في هذه الرتبة
فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى في تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد
أمرا على خلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيأ وصادف الالوان على
نحو صدق الرسوم عنده التى كانت رسمت له بها غير انه في ذلك كله حدث له أمران
عظيمان أحدهما تابع للآخر وهما زيادة الوضوح والابتلاج واللذة
العظيمة فحال الناظرين الذين لم يصلوا الى طور الولاية هى حالة الاعمى الاولى
والالوان التى في هذه الحال معلومة بشروح أسمائها هى تلك الامور التى قال
أبو بكر انها أجل من ان تنسب الى الحياة الطبيعية يهبها الله لمن يشاء من عباده
وحال النظار الذين وصلوا الى طور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك الشئ الذى

قلنا انه لا يسمى قوة الا على سبيل المجاز هي الحالة الثانية وقد يوجد في النادر من
هو بمنزلة من كان ابداً ثاقب البصيرة مفتوح البصر غير محتاج الى النظر ولست
أعني أكرمك الله بولايته ههنا بادراك أهل النظر ما يدركونه من عالم الطبيعة
وبادراك أهل الولاية ما يدركونه مما بعد الطبيعة فان هذين المدركين متباينان
جداً بأنفسهما ولا يلتبس أحدهما بالآخر بل الذي نعنيه بادراك أهل النظر
ما يدركونه مما بعد الطبيعة مثل ما أدركه أبو بكر ويشترط في ادراكهم هذا
ان يكون حقاً صحيحاً وحينئذ يقع النظر بينه وبين ادراك أهل الولاية الذين
يعتنون بتلك الاشياء بعينها مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ وقد عاب أبو بكر ذكر
هذا الالتذاذ على القوم وذكر انه للقوة الخيالية ووعد بأن يصف ما ينبغي ان
يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين وينبغي ان يقال له لا تستحل طعم شيء
لم تذق ولا تتخط رقاب الصديقين ولم يفعل الرجل شيأ من ذلك ولا وفى بهذه
العدة وقد يشبه ان منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول
الى وهران أو رأى انه ان وصف تلك الحال اضطره القول الى أشياء فيها قدح
عليه في سيرته وتكذيب لما أثبته من الحث على الاستكثار من المال والجمع
له وتصريف وجوه الحيل في اكتسابه * وقد خرج بنا الكلام الى غير ما حركتنا
اليه بسؤالك بعض خروج بحسب ما دعت الضرورة اليه * وظهر بهذا القول ان
مطلوبك لم يتعد أحد غرضين * اما ان تسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والاذواق
والحضور في طور الولاية فهذا مما لا يمكن اثباته على حقيقة أمره في كتاب ومتى
حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتب استحالت حقيقته وصار من قبيل
القسم الآخر النظري لانه اذا كسي الحروف والاصوات وقرب من عالم
الشهادة لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافا
كثيرا وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم وظن بآخرين ان اقدامهم زلت
وهي لم تزل وانما كان ذلك لانه أمر لا نهاية له في حضرة متسعة الاكناف محيطة
غير محاط بها * والغرض الثاني من الغرضين اللذين قلنا ان سؤالك لن يتعدّ
أحدهما هو ان تبتغي التعريف بهذا الامر على طريقة أهل النظر وهذا أكرمك
الله بولايته شيء يحتمل ان يوضع في الكتب وتتصرف فيه العبارات ولكنه أعدم
من الكبريت الاحمر ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه لانه من الغرابة

فى حد لا يظفر باليسير منه الا الفرد بعد الفرد ومن ظفر بشئ منه لم يكلم الناس به الا رمزا فان الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه ولا تظنن ان الفلسفة التى وصلت الينا فى كتب أرسطوطاليس وأبى نصر وفى كتاب الشفا تفى بهذا الغرض الذى أردته ولا ان أحدا من أهل الاندلس كتب فيه شيأ فيه كفاية وذلك ان من نشأ بالاندلس من أهل الفطرة الفائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغا رفيعا ولم يقدروا على اكثر من ذلك ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشئ من علم المنطق فنظروا فيه ولم يفض بهم الى حقيقة الكمال فكان فيهم من قال

برح بى ان علوم الورى * اثنان ما ان فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها * وباطل تحصيله ما يفيد

ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظرا وأقرب الى الحقيقة ولم يكن فيهم أثقب ذهنا ولا أصح نظرا ولا أصدق روية من أبى بكر بن الصائغ غير انه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته وأكثر ما يوجد له من التآليف انما هى غير كاملة ومجزومة من أواخرها ككتابه فى النفس وتدبير المتوحد وما كتبه فى المنطق وعلم الطبيعة وأما كتبه الكاملة فهى كتب وجيزة ورسائل مختلسة وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر ان المعنى المقصود برهانه فى رسالة الاتصال ليس يعطيه ذلك القول عطاء بينا الا بعد عسر واستكراه شديد وان ترتيب عبارته فى بعض المواضع على غير الطريق الاكمل ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها (فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه) وأما من كان معاصرا له ممن لم يوصف بانه فى مثل درجته فلم نر له تأليفا * وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد فى حد التزايد أو الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل الينا حقيقة أمره * وأما ما وصل الينا من كتب ابى نصر فأكثرها فى المنطق وما ورد منها فى الفلسفة فهى كثيرة الشكوك فقد أثبت فى كتاب الملة الفاضلة بقاء النفوس الشريرة بعد الموت فى آلام لا نهاية لها بقاء لا نهاية له ثم صرح فى السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء الا للنفوس الكاملة ثم وصف فى كتاب الاخلاق شيأ من أمر السعادة الانسانية

وانها

وانها انما تكون فى هذه الحياة التى فى هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاما هذا معناه وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات مجائز فهذا قد أيأس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير فى رتبة واحدة اذ جعل مصير الكل الى العدم وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر هذا مع ما صرح به من سوء معتقده فى النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة وتفضيله الفلاسفة عليها الى أشياء ليس بنا حاجة الى ايرادها * وأما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ أبو على بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته فى كتاب الشفا وصرح فى أول الكتاب بان الحق عنده غير ذلك وانه انما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وان من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بكتابه فى الفلسفة المشرقية ومن عنى بقراءة كتاب الشفا وبقراءة كتب أرسطوطاليس ظهر له فى أكثر الامور انها تتفق وان كان فى كتاب الشفا أشياء لم تبلغ الينا عن ارسطو واذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب الشفا على ظاهره دون ان يتفطن لسره وباطنه لم يوصل به الى الكمال حسب ما نبه عليه الشيخ أبو على فى كتاب الشفا * وأما كتب الشيخ أبى حامد الغزالى فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط فى موضع ويحل فى آخر ويكفر باشياء ثم يتحللها ثم انه من جملة ما كفر به الفلاسفة فى كتاب التهافت انكارهم لحشر الاجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ثم قال فى أول كتاب الميزان ان هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال فى كتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالاحوال ان اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وان أمره انما وقف على ذلك بعد طول البحث وفى كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل فى آخر كتاب ميزان العمل حيث وصف ان الآراء ثلاثة أقسام رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد ورأى يكون بين الانسان وبين نفسه لا يطلع عليه الا من هو شريكه فى اعتقاده ثم قال بعد ذلك ولو لم يكن فى هذه الالفاظ الا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة ثم تمثل بهذا البيت

خذ ما تراه ودع شيأ سمعت به * فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره انما هو رمز واشارة لا ينتفع به الا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولا ثم سمعها منه ثانيا أو من كان معدا الفهم فائق الفطرة يكتفي بايسر اشارة وقد ذكر في كتاب الجواهر ان له كتبا مضنونا بها على غير أهلها وانه ضمنها صريح الحق ولم يصل الى الاندلس في علمنا منها شئ بل وصلت كتب يزعم بعض الناس انها هي تلك المضنون بها وليس الامر كذلك وتلك الكتب هي كتاب المعارف العقلية وكتاب النفخ والتسوية ومسائل مجموعة سواها وهذه الكتب وان كانت فيها اشارات فانها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو مبثوث في كتبه المشهورة وقد يوجد في كتاب المقصد الاسنى ما هو أغمض مما في تلك وقد صرح هو بان كتاب المقصد الاسنى ليس مضنونا به فيلزم من ذلك ان هذه الكتب الواصلة ليست هي المضنون بها وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع في آخر كتاب المشكاة أمرا عظيما أوقعه في مهواة لا مخلص له منها وهو قوله بعد ذكر أصناف المحجوبين بالانوار ثم انتقاله الى ذكر الواصلين انهم وقفوا على ان هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافي الوحدانية المحضة فأراد ان يلزمه من ذلك انه يعتقد أن الحق سبحانه في ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولا شك عندنا في ان الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة لكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل الينا ولم يتخلص لنا نحن الحق الذي انتهينا اليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلامه وكلام الشيخ أبي علي وصرف بعضهما الى بعض واضافة ذلك الى الآراء التي نبغت في زماننا هذا ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة حتى استقام لنا الحق أولا بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا أهلا لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا ان تكون أيها السائل أول من اتحفناه بما عندنا وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولائك وزكاء صفائك غير انا ان ألقينا اليك بغايات ما انتهينا اليه من ذلك من قبل ان نحكم مباديها معك لم يفدك ذلك شيأ أكثر من أمر تقليدي مجمل هذا ان أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة لا بمعنى انا نستحق ان يقبل قولنا ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك الا ما هو أعلى منها اذ هي غير كفيلة بالنجاة فضلا عن الفوز بأعلى الدرجات وانما نريد أن نحملك

على

على المسالك التى نقدم عليها سلوكا ونسيح بك فى البحر الذى قد عبرناه اوّلا حتى يفضى بك الى ما أفضى بنا اليه فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه * وهذا يحتاج الى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل واقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشمير فى هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك وتكون قد أرضيت ربك وأرضاك وأنالك حيث تريده من أملك وتطمح اليه بهمتك وكليتك وأرجو أن أصل من السلوك بك على اقصد الطريق وأمنها من الغوائل والآفات وان عرضت الآن الى لمحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فأنا واصف لك قصة حى بن يقظان وابسال وسلامان الذين سماهم الشيخ أبو على ففى قصصهم عبرة لأولى الالباب وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

ذكر سلفنا الصالح رضى الله عنهم ان جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء وهى التى ذكر المسعودى انها جوارى الوقواق لان تلك الجزيرة أعدل بقاع الارض هواء وأتمها لشروق النور الاعلى عليها استعدادا وان كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الاطباء فانهم يرون ان أعدل ما فى المعمورة الاقليم الرابع فان كانوا قالوا ذلك لانه صح عندهم انه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الارضية فلقولهم ان الاقليم الرابع أعدل بقاع الارض وجه وان كانوا انما أرادوا بذلك ان ما على خط الاستواء شديد الحرارة كالذى يصرح به أكثرهم فهو خطاء يقوم البرهان على خلافه وذلك انه قد تبرهن فى العلوم الطبيعية انه لا سبب لتكون الحرارة الا الحركة أو ملاقاة الاجسام الحارة والاضاءة وتبين فيها أيضا ان الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشئ من هذه الامور المزاجية وقد تبين فيها أيضا ان الاجسام التى تقبل الاضاءة أتم القبول هى الاجسام الصقيلة غير الشفافة ويليها فى قبول ذلك الاجسام الكثيفة غير الصقيلة فاما الاجسام الشفافة التى لا شئ فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو على خاصة ولم يذكره من تقدمه فاذا تم

وصحت هذه المقدمات فاللازم عنها ان الشمس لا تسخن الارض كما تسخن الاجسام الحارة اجساما أخر تماسها لان الشمس فى ذاتها غير حارة ولا الارض أيضا تسخن بالحركة لانها ساكنة وعلى حالة واحدة فى وقت شروق الشمس عليها وفى وقت مغيبها عنها وأحوالها فى التسخين والتبريد ظاهرة الاختلاف للحس فى هذين الوقتين ولا الشمس أيضا تسخن الهواء أولا ثم تسخن بعد ذلك الارض بتوسط سخونة الهواء وكيف يكون ذلك ونحن نجد ما قرب من الهواء من الارض فى وقت الحر أسخن كثيرا من الهواء الذى يبعد منه علوا فبقى ان تسخين الشمس للارض انما هو على سبيل الاضاءة لا غير فان الحرارة تتبع الضوء أبدا حتى ان الضوء اذا أفرط فى المرآة المقعرة أشعل ما حاذاها وقد ثبت فى علوم التعاليم بالبراهين القطعية ان الشمس كرية الشكل وان الارض كذلك وان الشمس أعظم من الارض كثيرا وان الذى يستضىء من الارض بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها وان هذا النصف المضىء من الارض فى كل وقت أشد ما يكون الضوء فى وسطه لانه أبعد المواضع من الظلمة عند محيط الدائرة ولانه يقابل من الشمس أجزاء كثيرة وما قرب من المحيط كان أقل ضوءا حتى ينتهى الى الظلمة عند محيط الدائرة الذى ما أضاء موقعه من الارض قط وانما يكون الموضع وسط دائرة الضياء اذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة فى ذلك الموضع أشد ما يكون فان كان الموضع مما تبعد الشمس فيه عن مسامتة رؤوس أهله كان شديد البرودة جدا وان كان مما تدوم فيه المسامتة كان شديد الحرارة وقد ثبت فى علم الهيئة ان بقاع الارض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم وستة أشهر شمالا منهم فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة وهذا القول يحتاج الى بيان أكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله وانما نبهناك عليه لانه من الامور التى تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بان حى بن يقظان من جملة من تكون فى تلك البقعة من غير أم ولا أب ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبرا نقصه عليك فقال * انه كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الاكناف كثيرة

الفوائد

الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الانفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الازواج اذلم يجد لها كفؤا وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز فى مذهبهم المشهور فى زمنهم ثم انها حملت منه ووضعت طفلا فلما خافت ان يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته فى تابوت أحكمت زمه بعدان روته من الرضاع وخرجت به فى أول الليل فى جملة من خدمها وثقاتها الى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة وخوفا عليه ثم انها ودعته وقالت اللهم انك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيأ مذكورا ورزقته فى ظلمات الاحشاء وتكفلت به حتى تم واستوى وأنا قد سلمته الى لطفك ورجوت له فضلك خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا أرحم الراحمين ثم قذفت به فى اليم فصادف ذلك جرى الماء بقوة المد فاحتمله من ليلته الى ساحل الجزيرة الاخرى المتقدم ذكرها وكان المد ينتهى الى أقصاه فى البر لا يصل الى ذلك المكان الا بعد سنة فادخله الماء بقوته الى اجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تزاور عنها اذا طلعت وتميل اذا غربت ثم أخذ الماء فى النقص والجزر عن التابوت الذى فيه الطفل و بقى التابوت فى ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الاجمة على التابوت وردمت مدخل الماء الى تلك الاجمة فكان المد لا ينتهى اليها وكانت مسامير التابوت قد قلعت وألواحه قد اضطربت عند رمى الماء اياه فى تلك الاجمة فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته فى أذن ظبية فقدت ولدها خرج من كناسه فحمله العقاب فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت حتى وصلت الى التابوت ففحصت عنه باظلافها وهو ينوء من داخله حتى طار عن التابوت لوح من اعلاه فحنت الظبية ورئمت به والقمته حلمتها وروته لبنا سائغا ومازالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الاذى * هذا ما كان من ابتدا أمره عند من ينكر التولد ونحن نصف بعد هذا كيف تربى وكيف انتقل فى أحواله حتى بلغ المبلغ العظيم * وأما الذين زعموا انه تولد من الارض فانهم قالوا ان بطنا من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والاعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جدا وكان

بعضها بفضل بعض في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكوّن الامشاج وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث للوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جدا منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل اذ قد تبين ان هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وانه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم فمن الاجسام ما لا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدا ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهي الاجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف في قبول الضياء فتختلف بحسب ذلك ألوانها ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهي الاجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها فاذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيها النار لافراط الضياء وكذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى فياض أبدا على جميع الموجودات فمنها ما لا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهي الجمادات التي لا حياة لها وهذه بمنزلة الهوى في المثال المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه وهي أنواع النبات بحسب استعداداتها وهذه بمنزلة الاجسام الكثيفة في المثال المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه ظهورا كثيرا وهي أنواع الحيوان وهذه بمنزلة الاجسام الصقيلة في المثال المتقدم ومن هذه الاجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكي صورة الشمس ومثالها وكذلك أيضا من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح انه يحكي الروح ويتصور بصورته وهو الانسان خاصة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (ان الله خلق آدم على صورته) فان قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور في حقها وتبقى هي وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لا يكون الا للانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهذا كله مبين في مواضعه اللائقة به فليرجع الى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق * قالوا فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالى في كمالها فتكوّن بازاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة الى ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة

قوله القرارة بالفتح ما قرّ فيه والقاع المستدير أو هو فرزه بالفاء والزاي جمعه فرز كعنب الشقوق والتجاويف وحرره اهـ م

ومسالك نافذة وامتلأت بمثل ذلك الجسم الهوائى الذى امتلأت منه القرارة الاولى الا انه ألطف منه وسكن فى هذه البطون الثلاثة المقسمة من واحد طائفة من تلك القوى التى خضعت له وتوكلت بحراسته والقيام عليه وانهاء ما يطرأ فيها من دقيق الاشياء وجليلها الى الروح الاول المتعلق بالقرارة الاولى وتكوّن أيضا بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا الا انه أغلظ من الاولين وسكن فى هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة المتوكلة بحفظه والقيام عليه فكانت هذه القرارة الاولى والثانية والثالثة أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى على الترتيب الذى ذكرناه واحتاج بعضها الى بعض فالاولى منها حاجتها الى الاخريين حاجة استخدام وتسخير والاخريان حاجتهما الى الاولى حاجة المرؤوس الى الرئيس والمدبر الى المدبر وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الاعضاء رئيس لا مرؤوس وأحدهما وهو الثانى أتم رئاسة من الثالث فالاول منهما لما تعلق به من الروح واشتعلت حرارته تشكل بشكل النار الصنوبرى وتشكل أيضا الجسم الغليظ المحدق به على شكله وتكوّن لحما صلبا وصار عليه غلاف صفيق يحفظه وسمى العضو كله قلبا واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وافناء الرطوبات الى شئ يمده ويغذوه ويخلف ما تحلل منه على الدوام والا لم يحصل بقاؤه واحتاج أيضا الى ان يحس بما يلائمه فيجتذبه وبما يخالفه فيدفعه فتكفل له العضو الواحد بما فيه من القوى التى أصلها منه بحاجته الواحدة وتكفل له العضو الآخر بما فيه بالاخرى وكان المتكفل بالحس هو الدماغ والمتكفل بالغذاء هو الكبد واحتاج كل واحد من هذين اليه فى ان يمدهما بحرارته وبالقوى المخصوصة بهما التى اصلها منه فانتسجت بينهما لذلك كله مسالك وطرق بعضها اوسع من بعض بحسب ما تدعو اليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق * ثم مازالوا يصفون الخلقة كلها والاعضاء بجملتها على حسب ما وصفه الطبيعيون فى خلقة الجنين فى الرحم لم يغادروا من ذلك شيأ الى ان كمل خلقه وتمت اعضاؤه وحصل فى حد خروج الجنين من البطن واستعانوا فى وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة المتخمرة وانها كانت قد تهيأت لان يتخلق منها كل ما يحتاج اليه فى خلق الانسان ن

الاغشية الجلالة لجملة بدنه وغيرها فلما كمل انشقت عنه تلك الاغشية بشبه
المخاض وتصدع باقي الطينة اذ كان قد لحقه الجفاف ثم استغاث ذلك الطفل
عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه فلبته ظبية فقدت طلاها ثم استوى
ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع وما وصفته الطائفة الاولى في معنى التربية
فقالوا جميعا ان الظبية التي تكفلت به وافقت خصبا ومرعى أثيثا فكثر لحمها
ودر لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل احسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه الا
لضرورة الرعي والف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث اذا هي أبطأت عنه
اشتد بكاؤه فطارت اليه ولم يكن بتلك الجزيرة شئ من السباع العادية فتربى
الطفل ونمى واغتذى بلبن تلك الظبية الى ان تم له حولان وتدرج في المشي
وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وترحمه وتحمله الى مواضع
فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة وما كان منها
صلب القشر كسرته له بطواحنها ومتى عاد الى اللبن روته ومتى ظمأ الى الماء
أوردته ومتى ضحى ظللته ومتى خصر أدفأته فاذا جن الليل صرفته الى مكانه
الاول وجللته بنفسها وبريش كان هناك مما ملئ به التابوت أولا في وقت وضع
الطفل فيه وكان في غدوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح معهما
ويبيت حيث مبيتهما فما زال الطفل مع الظبية على تلك الحال يحكي نغمتها
بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات
الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده وأكثر ما كانت
محاكاته لاصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع
اذ للحيوانات في هذه الاحوال المختلفة أصوات مختلفة فألفته الوحوش وألفها
ولم تنكره ولا أنكرها فلما ثبتت في نفسه أمثلة الاشياء بعد مغيبها عن مشاهدته
حدث له نزوع الى بعضها وكراهية لبعض وكان في ذلك كله ينظر الى جميع
الحيوانات فيراها كاسية بالاوبار والاشعار وأنواع الريش وكان يرى ما لها من
سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الاسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل
القرون والانياب والحوافر والصياصي والمخالب ثم يرجع الى نفسه فيرى ما به
من العري وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عندما كانت تنازعه
الوحوش اكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبها عليه فلا يستطيع المدافعة عن

قوله نزوع يقال نزع الى اهله اشتاق اهـ

نفسه

نفسه ولا انفراد عن شئ منها وكان يرى اترابه من أولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد ان لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها في العدو ولم ير لنفسه شيأ من ذلك كله فكان يفكر في ذلك ولا يدرى ما سببه وكان ينظر الى ذوى العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيها فيهم وكان أيضا ينظر الى مخارج الفضول من سائر الحيوان فيراها مستورة أما مخرج اغلظ الفضلتين فبالاذناب وأما أرقهما فبالاوبار وما اشبهها ولانها كانت أخفى قضيبا منه فكان ذلك كله يكربه ويسوءه فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة اعوام ويئس من ان يكمل له ما قد أضر به نقصه اتخذ من اوراق الشجر العريضة شيأ جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك الاوراق فلم يلبث الا يسيرا حتى زوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة وربما كان ذلك أطول لبقائه الا انه على كل حال قصير المدة واتخذ من اغصان الشجر عصيا سوى أطرافها وعدل متنها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة وعلم ان ليده فضلا كثيرا على ايديها اذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى الذى يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما اراده من الذنب والسلاح الطبيعى وفي خلال ذلك ترعرع واربى على السبع سنين وطال به العناء في تجديد الاوراق التى كان يستتر بها فكانت نفسه تنازعه الى اتخاذ ذنب من أذناب الوحوش الميتة ليعلقه على نفسه الا انه كان يرى احيا الوحوش تتحامى ميتها وتفر عنه فلا يتأتى له الاقدام على ذلك الفعل الى ان صادف في بعض الايام نسرا ميتا فهدى الى نيل أمله منه واغتنم الفرصة فيه اذ لم ير للوحوش عنه نفرة فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه صحاحا كما هى وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط احداهما على ظهره والاخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضده فأكسبه ذلك سترا ودفئا ومهابة في نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه فصار لا يدنو اليه شئ منه سوى الظبية التى كانت ارضعته وربته فانها لم تفارقه ولا فارقها الى ان أسنت وضعفت فكان يرتاد بها المراعى الخصبة ويجتنى لها الثمرات الحلوة ويطعمها

وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى الى ان ادركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع افعالها فلما رآها الصبي على تلك الحالة جزع جزعا شديدا وكادت نفسه تفيض أسفا عليها فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها ان تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرا فكان ينظر الى أذنيها والى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة وكذلك كان ينظر الى جميع اعضائها فلا يرى بشئ منها آفة فكان يطمع ان يعثر على موضع الآفة ويزيلها عنها فترجع الى ما كانت عليه فلم يتأت له شئ من ذلك ولا استطاعه وكان الذى أرشده لهذا الرأى ما كان قد اعتبره فى نفسه قبل ذلك لانه كان يرى انه اذا غمض عينيه أو حجبهما بشئ لا يبصر شيأ حتى يزول ذلك العائق وكذلك يرى انه اذا أدخل أصبعيه فى أذنيه وسدهما لا يسمع شيأ حتى يزيلهما واذا أمسك انفه بيده لا يشم شيأ من الروايح حتى يفتح انفه فاعتقد من اجل ذلك ان جميع ما لها من الادركات والافعال قد تكون لها عوائق تعوقها فاذا أزيلت تلك العوائق عادت الافعال فلما نظر الى جميع اعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو وقع فى خاطره ان الآفة التى نزلت بها انما هى فى عضو غائب عن العيان مستكن فى باطن الجسد وان ذلك العضو لا يغنى عنه فى فعله شئ من هذه الاعضاء الظاهرة فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة وطمع بأنه لو عثر بذلك العضو وأزال عنه ما نزل به لاستقامت أحواله وفاض على سائر البدن نفعه وعادت الافعال الى ما كانت عليه وكان قد شاهد قبل ذلك فى الاشباح الميتة من الوحوش وسواها ان جميع اعضائها مصمتة لا تجويف فيها الا القحف والصدر والبطن فوقع فى نفسه ان العضو الذى بتلك الصفة لن يعدو أحد هذه المواضع الثلاثة وكان يغلب على ظنه غلبة قوية انه انما هو فى الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة اذ كان قد استقر فى نفسه ان جميع الاعضاء محتاجة اليه وان الواجب بحسب ذلك ان يكون مسكنه فى الوسط وكان أيضا اذا رجع الى ذاته شعر بمثل هذا العضو فى صدره ولانه كان يعترض سائر أعضائه كاليد والرجل والأذن والانف والعين والرأس ويقدر مفارقتها فيتأتى له انه كان يستغنى عنها وكان يقدر فى رأسه مثل ذلك ويظن انه

يستغنى

يستغنى عنه فاذا افكر فى الشئ الذى يجده فى صدره لم يتأت له الاستغناء عنه
طرفة عين وكذلك كان عند محاربته الوحوش اكثر ما يتقى من صياصيهم على
صدره لشعوره بالشئ الذى فيه فلما جزم الحكم بأن العضو الذى نزلت به الآفة
انما هو فى صدرها اجمع على البحث عليه والتنقير عنه لعله يظفر به ويرى آفته
فيزيلها ثم انه خاف ان يكون نفس فعله هذا أعظم من الآفة التى نزلت بها
أولا فيكون سعيه عليها ثم انه تفكر هل رأى من الوحوش أو سواها من صار فى
مثل تلك الحال ثم عاد الى مثل حاله الاول فلم يجد شيأ فحصل له من ذلك اليأس
من رجوعها الى حالها الاول ان هو تركها وبقى له بعض رجاء فى رجوعها الى
تلك الحال ان هو وجد ذلك العضو وازال الآفة عنه فعزم على شق صدرها
وتفتيش ما فيه فاتخذ من كسور الاحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة
اشباه السكاكين وشق بها بين اضلاعها حتى قطع اللحم الذى بين الاضلاع
وأفضى الى الحجاب المستبطن للاضلاع فرآه قويا فقوى ظنه بأن مثل ذلك
الحجاب لا يكون الا لمثل ذلك العضو وطمع بأنه اذا تجاوزه ألفى مطلوبه فحاول شقه
فصعب عليه لعدم الآلات ولانها لم تكن الا من الحجارة والقصب فاستجدها
ثانية واستحدها وتلطف فى خرق الحجاب حتى انخرق له فأفضى الى الرئة فظن
أولا انها مطلوبه فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها وكان أولا انما وجد
منها نصفها الذى هو فى الجانب الواحد فلما رآها مائلة الى جهة واحدة وكان قد
اعتقد أن ذلك العضو لا يكون الا فى الوسط فى عرض البدن كما هو فى الوسط فى
طوله فما زال يفتش فى وسط الصدر حتى الفى القلب وهو مجلل بغشا فى غاية
القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة والرئة مطيفة به من الجهة التى بدأ بالشق منها
فقال فى نفسه ان كان لهذا العضو من الجهة الاخرى مثل ماله من هذه الجهة فهو
فى حقيقة الوسط ولا محالة انه مطلوبى لاسيما مع ما أرى له من حسن الوضع
وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة اللحم وانه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى
لم أر مثله لشئ من الاعضاء فبحث عن الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الحجاب
المستبطن للاضلاع ووجد الرئة على ما وجده من هذه الجهة فحكم بأن ذلك
العضو هو مطلوبه فحاول هتك حجابه وشق شغافه فبكد واستكراه ما قدر على
ذلك بعد استفراغ مجهوده وجرد القلب فرآه مصمتا من كل جهة فنظر هل يرى

فيه آفة ظاهرة فلم ير فيه شيأ فشدّ عليه يده فتبين به ان فيه تجويفا فقال لعل مطلوبى الاقصى انما هو فى داخل هذا العضو وأنا حتى الآن لم أصل اليه فشق عليه فألفى فيه تجويفين اثنين أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى والذى من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذى من الجهة اليسرى خال لاشئ فيه فقال لن يعدو مطلبى أن يكون مسكنه أحد هذين البيتين ثم قال أما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد ولاشك انه لم ينعقد حتى صار الجسد كله الى هذا الحال اذ كان قد شاهد أن الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا الادما كسائر الدماء وأنا أرى هذا الدم موجودا فى سائر الاعضاء لا يختص به عضو دون آخر وأنا ليس مطلوبى شيأ بهذه الصفة انما مطلوبى الشئ الذى يختص به هذا الموضع الذى أجدنى لا استغنى عنه طرفة عين واليه كان انبعاثى من أول وأما هذا الدم فكم مرة جرحتنى الوحوش فى المحاربة فسال منى كثير منه فاضرنى ذلك ولا أفقدنى شيأ من أفعالى فهذا بيت ليس فيه مطلوبى وأما البيت الايسر فأراه خاليا لاشئ فيه وما أرى ان ذلك باطل فانى رأيت كل عضو من الاعضاء انما هو لفعل يختص به فكيف يكون هذا البيت على ماشاهدت من شرفه باطلا ما أرى الا أن مطلوبى كان فيه فارتحل عنه وأخلاه وعند ذلك طرى على هذا الجسد من العطلة ماطرى ففقد الادراك وعدم الحراك فلما رأى أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله تحقق انه أحرى الا يعود اليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ماحدث فصار عنده الجسد كله خسيسا لاقدر له بالاضافة الى ذلك الشئ الذى اعتقد فى نفسه انه يسكنه مدّة ويرحل عنه بعد ذلك فاقتصر على الفكرة فى ذلك الشئ ماهو وكيف هو وما الذى ربطه بهذا الجسد والى أين صار ومن أى الابواب خرج عند خروجه من الجسد وما السبب الذى أزعجه ان كان خرج كارها وما السبب الذى كرّه اليه الجسد حتى فارقه ان كان خرج مختارا وتشتت فكره فى ذلك كله وسلا عن ذلك الجسد وطرحه وعلم أن أمه التى عطفت عليه وأرضعته انما كانت ذلك الشئ المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الافعال كلها لا هذا الجسد العاطل وأن هذا الجسد بجملته انما هو كالآلة لذلك وبمنزلة العصى التى اتخذها هو لقتال الوحوش

فانتقلت

فانتقلت علاقته عن الجسد الى صاحب الجسد ومحركه ولم يبق له شوق الا اليه وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وفاحت منه روايح كريهة فزادت نفرته عنه وودّ ألا يراه ثم انه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا ثم جعل الحي يبحث في الارض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال في نفسه ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه وان كان قد أساء في قتله اياه وأنا كنت أحق بالاهتداء الى هذا الفعل بأمي فحفر حفرة وألقى فيها جسد أمه وحثى عليها التراب وبقي يتفكر في ذلك الشيء المصرّف للجسد ولا يدرى ما هو غير أنه كان ينظر الى أشخاص الظباء كلها فيراها على شكل أمه وعلى صورتها فكان يغلب على ظنه ان كل واحد منها انما يحركه ويصرّفه شيء هو مثل الشيء الذي كان يحرك أمه ويصرّفها فكان يألف الظباء ويحن اليها لمكان ذلك الشبه وبقي على ذلك برهة من الزمان يتصفح أنواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة ويتطلب هل يجد لنفسه شبيها حسب ما يرى لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباها كثيرة فلا يجد شيأ من ذلك وكان يرى البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة فيعتقد أنه ليس في الوجود أرض سوى جزيرته تلك واتفق في بعض الاحيان ان انقدحت نار في أجمة قلخ على سبيل المحاكاة فلما بصر بها رأى منظرا هاله وخلقا لم يعتده قبل فوقف يتعجب منها مليا ومازال يدنو منها شيأ فشيأ فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حين لا تعلق بشيء الا أتت عليه واحالته الى نفسها فحمله العجب بها وما ركب الله تعالى في طباعه من الجراءة والقوّة على ان مدّ يده اليها وأراد أن يأخذ منها شيأ فلما باشرها أحرقت يده ولم يستطع القبض عليها اهتدى الى ان يأخذ قبسا لم تستول النار على جميعه فأخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر فتأتى له ذلك وحمله الى موضعه الذي كان يأوى اليه وكان قد خلا في جحر كان استحسنه للسكنى قبل ذلك ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ويتعهدها ليلا ونهارا استحسانا لها وتعجبا منها وكان يزيد أنسه بها ليلا لانها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفء فعظم بها ولوعه واعتقد أنها افضل الاشياء التي لديه وكان دائما يراها تتحرك الى جهة فوق وتطلب العلو فغلب على ظنه انها من جملة الجواهر السماوية التي كان يشاهدها وكان يختبر

قوتها في جميع الاشياء بأن يلقيها فيها فيراها مستولية عليه اما بسرعة واما ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيأ من أصناف الحيوانات البحرية كان قد ألقاه البحر الى ساحله فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته اليه فأكل منه شيأ فاستطابه فاعتاد بذلك اكل اللحم فصرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك وزادت محبته في النار اذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شئ لم يتأت له قبل ذلك فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها وقع في نفسه ان الشئ الذي ارتحل من قلب أمه الظبية التي أنشأته كان من جوهر هذا الموجود أو من شئ يجانسه وأكد ذلك في ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته وبرودته من بعد موته وكل هذا دائم لا يختل وما كان يجده في نفسه من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الظبية فوقع في نفسه انه لو أخذ حيوانا وشق قلبه ونظر الى ذلك التجويف الذي صادفه خاليا عند ما شق عليه في أمه الظبية لرآه في هذا الحيوان الحي وهو مملوء بذلك الشئ الساكن فيه وتحقق هل هو من جوهر النار وهل فيه شئ من الضوء والحرارة أم لا فعمد الى بعض الوحوش واستوثق منه كتافا وشقه على الصفة التي شق بها الظبية حتى وصل الى القلب فقصد أولا الى الجهة اليسرى منه وشقها فرأى ذلك الفراغ مملوأ بهواء بخارى يشبه الضباب الابيض فأدخل أصبعه فيه فوجده من الحرارة في حد كاد يحرقه ومات ذلك الحيوان على الفور فصح عنده ان ذلك البخار الحار هو الذي كان يحرك هذا الحيوان وان في كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ومتى انفصل عن الحيوان مات ثم تحركت في نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به وكيف بقاء هذا البخار المدة التي يبقى ومن أين يستمد وكيف لا تنفد حرارته فتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الاحياء والاموات ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له ان كل شخص من أشخاص الحيوان وان كان كثيرا باعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من

قرار

قرار واحد وانقسامه فى سائر الاعضاء منبعث منه وأن جميع الاعضاء انما هى خادمة له أو مؤدية عنه وان منزلة ذلك الروح فى تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الاعداء بالسلاح التام أو يصيد جميع صيد البحر والبر فيعد لكل جنس آلة يصيده بها * والتى يحارب بها تنقسم الى مايدفع بها نكاية غيره والى ماينكى بها غيره وكذلك آلات الصيد تنقسم الى مايصلح لحيوان البحر والى مايصلح لحيوان البر وكذلك الاشياء التى يشرح بها تنقسم الى مايصلح للشق والى مايصلح للكسر والى مايصلح للثقب والبدن واحد وهو يصرف ذلك انحاء من التصريف بحسب ماتصلح له كل آلة و بحسب الغايات التى تلتمس بذلك التصريف * كذلك ذلك الروح الحيوانى واحد واذا عمل بآلة العين كان فعله ابصارا واذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعا واذا عمل بآلة الانف كان فعله شما واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقا واذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمسا واذا عمل بالعضو كان فعله حركة واذا عمل بالكبد كان فعله غذا واغتذاء ولكل واحد من هذه أعضاء تخدمه ولا يتم لشئ من هذه فعل الا بما يتصل اليها من ذلك الروح على الطرق التى تسمى عصبا ومتى انقطعت تلك الطرق أو انسدت تعطل فعل ذلك العضو وهذه الاعصاب انما تستمد الروح من بطون الدماغ والدماغ يستمد الروح من القلب والدماغ فيه ارواح كثيرة لانه موضع تتوزع فيه أقسام كثيرة فأى عضو عدم هذا الروح بسبب من الاسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الآلة المطرحة التى لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها فان خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فنى أو تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار الى حالة الموت فانتهى به النظر الى هذا الحد من النظر على رأس ثلاثة أسابيع من منشائه وذلك احد وعشرون عاما وفى خلال هذه المدة المذكورة تفنن فى وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التى كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الاشعار ولحاء قصب الخطمية والخبازى والقنب وكل نبات ذى خيط وكان أصل اهتدائه الى ذلك انه أخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوى والقصب المحدد على الحجارة واهتدى الى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ مخزنا وبيتا لفضلة غذائه وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه الى بعض لئلا يصل اليه شئ من الحيوانات

القنب بالكسر وكسكر نوع من الكتان اهـ م

عنـد مغيبه عن تلك الجهة فى بعض شؤونه واستأنف جوارح الطير ليستعين بها فى الصيد واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها واتخذ من صياصى البقر الوحشية شبه الاسنة وركبها فى القصب القوى وفى عصى الزان وغيرها واستعان فى ذلك بالنار وبحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح واتخذ ترسه من جلود مضاعفة كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعى ولما رأى أن يده تفى له بكل مافاته من ذلك وكان لا يقاومه شئ من الحيوانات على اختلاف أنواعها الا انها كانت تفر عنه فتعجزه هربا ففكر فى وجه الحيلة فى ذلك فلم ير شيأ أنجح له من ان يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن اليها بالغذاء الذى يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الاصناف بها وكان بتلك الجزيرة خيل برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل له بها غرضها وعمل عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج فتأتى له بذلك ما أمله من طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة فى أخذه وانما تفنن فى هذه الامور كلها فى وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته فى وقوفه على خصائص أعضاء الحيوان وبماذا تختلف وذلك فى المدة التى حددنا منتهاها باحد وعشرين عاما * ثم انه بعد ذلك أخذ فى مآخذ من النظر فتصفح جميع الاجسام التى فى عالم الكون والفساد من الحيوانات على اختلاف أنواعها والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان والجليد واللهيب والجمر فرأى لها أوصافا كثيرة وأفعالا مختلفة وحركات متفقة ومتضادة وأنعم النظر فى ذلك والتثبت فرأى انها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض وانها من الجهة التى تتفق بها واحدة ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة فكان تارة ينظر خصائص الاشياء وما يتفرد به بعضها عن بعض فتكثر عنده كثرة تخرج عن الحصر وينتشر له الوجود انتشارا لا يضبط وكانت تتكثر عنده أيضا ذاته لانه كان ينظر الى اختلاف أعضائه وان كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه وكان ينظر الى كل عضو منها فيرى انه يحتمل القسمة الى أجزاء كثيرة جدا فيحكم على ذاته بالكثرة وكذلك على ذات كل شئ ثم كان يرجع الى نظر آخر من طريق ثان فيرى ان أعضاءه وان كانت كثيرة فهى متصلة كلها بعضها ببعض لا انفصال بينها بوجه فهى فى حكم

الواحد

الواحد وانها لا تختلف الا بحسب اختلاف أفعالها وان ذلك الاختلاف انما هو بسبب ما يصل اليها من قوة الروح الحيوانى الذى انتهى اليه نظره أولا وأن ذلك الروح واحد فى ذاته وهو أيضا حقيقة الذات وسائر الاعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق * ثم كان ينتقل الى جميع أنواع الحيوان فيرى كل شخص منها واحدا بهذا النوع من النظر ثم كان ينظر الى نوع منها كالظباء والخيل والحمر وأصناف الطير صنفا صنفا فكان يرى اشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الاعضاء الظاهرة والباطنة والادراكات والحركات والمنازع ولا يرى بينها اختلافا الا فى أشياء يسيرة بالاضافة الى ما اتفقت فيه وكان يحكم بان الروح الذى لجميع ذلك النوع شئ واحد وانه لم يختلف الا لانه انقسم على قلوب كثيرة وانه لو أمكن ان يجمع جميع الذى افترق فى تلك القلوب منه ويجعل فى وعاء واحد لكان كله شيأ واحدا بمنزلة ماء واحد وشراب واحد تفرق على أوان كثيرة ثم يجمع بعد ذلك فهو فى حالتى تفريقه وجمعه شئ واحد وانما عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحدا ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة اعضاء الشخص الواحد التى لم تكن كثيرة فى الحقيقة ثم كان يحضر أنواع الحيوان كلها فى نفسه ويتأملها فيراها تتفق فى أنها تحس وتغتذى وتتحرك بالارادة الى أى جهة شاءت وكان قد علم ان هذه الافعال هى أخص أفعال الروح الحيوانى به وان سائر الاشياء التى تختلف بها بعد هذا الاتفاق ليست شديدة الاختصاص بالروح الحيوانى * فظهر له بهذا التأمل ان الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة وان كان فيه اختلاف يسير اختص به نوع دون نوع بمنزلة ماء واحد مقسوم على أوان كثيرة بعضه أبرد من بعض وهو فى أصله واحد وكل ما كان فى طبقة واحدة من البرودة فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيوانى بنوع واحد وبعد ذلك فكما ان ذلك الما كله واحد فكذلك الروح الحيوانى واحد وان عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى جنس الحيوان كله واحدا بهذا النوع من النظر * ثم كان يرجع الى انواع النبات على اختلافها فيرى كل نوع منها تشبه اشخاصه بعضها بعضا فى الاغصان والورق والزهر والثمر والافعال فكان يقيسها بالحيوان ويعلم ان لها شيأ واحدا اشتركت فيه هو لها بمنزلة الروح للحيوان وانها بذلك الشئ

واحد وكذلك كان ينظر الى جنس النبات كله فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله فى انه يغتذى و ينمو ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات فيراهما جميعا متفقين فى الاغتذاء والنمو الا ان الحيوان يزيد على النبات بفضل الحس والادراك والتحرك وربما ظهر فى النبات شئ شبيه به مثل تحول وجوه الزهر الى جهة الشمس وتحرك عروقه الى جهة الغذاء وأشباه ذلك فظهر له بهذا التأمل ان النبات والحيوان شئ واحد بسبب شئ واحد مشترك بينهما هو فى أحدهما أتم وأكمل وفى الآخر قد عاقه عائق ما وان ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين أحدهما جامد والآخر سيال فيتحد عنده النبات والحيوان * ثم ينظر الى الاجسام التى لا تحس ولا تغتذى ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء واللهب فيرى انها أجسام مقدر لها طول وعرض وعمق وانها لا تختلف الا ان بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حار وبعضها بارد ونحو ذلك من الاختلاف وكان يرى ان الحار منها يصير باردا والبارد يصير حارا وكان يرى الماء يصير بخارا والبخار يصير ماء والاشياء المحترقة تصير جمرا ورمادا ولهيبا ودخانا والدخان اذا وافق فى صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الاشياء الارضية فيظهر له بهذا التأمل ان جميعها شئ واحد فى الحقيقة وان لحقتها الكثرة بوجه ما فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات ثم ينظر الى الشئ الذى اتحد به عنده النبات والحيوان فيرى انه جسم مثل هذه الاجسام له طول وعرض وعمق وهو اما حار واما بارد كواحد من هذه الاجسام التى لا تحس ولا تتغذى وانما خالفها بأفعاله التى تظهر عنه بالآلات الحيوانية والنباتية لا غير ولعل تلك الافعال ليست ذاتية وانما تسرى اليه من شئ آخر ولو سرت الى هذه الاجسام الأخر لكانت مثله فكان ينظر اليه بذاته مجردا عن هذه الافعال التى تظهر ببادئ الرأى انها صادرة عنه فكان يرى انه ليس الا جسما من هذه الاجسام فيظهر له بهذا التأمل ان الاجسام كلها شئ واحد حيها وجمادها متحركها وساكنها الا انه يظهر لبعضها أفعال بآلات ولا يدرى هل تلك الافعال ذاتية لها او سارية اليها من غيرها وكان فى هذه الحال لا يرى شيأ غير الاجسام فكان بهذا الطريق يرى الموجود كله شيأ واحدا وبالنظر الاول يرى الموجود كثرة لا تنحصر ولا تتناهى وبقى بحكم هذه الحالة مدة ثم انه تأمل

جميع

جميع الاجسام حيها وجمادها وهى التى هى عنده تارة شئ واحد وتارة كثيرة لانهاية لها فرأى أن كل واحد منها لا يخلو من أحد أمرين اما أن يتحرك الى جهة العلوّ مثل الدخان واللهيب والهواء اذا حصل تحت الماء وأما ان يتحرك الى الجهة المضادة لتلك الجهة وهى جهة السفل مثل الماء وأجزاء الارض وأجزاء الحيوان والنبات وأن كل جسم من هذه الاجسام لن يعرى عن هاتين الحركتين وانه لا يسكن الا اذا منعه مانع يعوقه عن طريقه مثل الحجر النازل يصادف وجه الارض صلبا فلا يمكنه ان يخرقه ولو أمكنه ذلك لما انثنى عن حركته فيما يظهر ولذلك اذا رفعته وجدته يتحامل عليك بميله الى جهة السفل طالبا للنزول وكذلك الدخان فى صعوده لا ينثنى الا ان يصادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ ينعطف يمينا وشمالا ثم اذا تخلص من تلك القبة خرق الهواء صاعدا لان الهواء لا يمكنه ان يحبسه * وكان يرى أن الهواء اذا ملى به زق جلد وربط ثم غوّص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولا يزال يفعل ذلك حتى يوافى موضع الهواء وذلك بخروجه من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل الى جهة العلوّ الذى كان يوجد منه قبل ذلك ونظر هل يجد جسما يعرى عن احدى هاتين الحركتين أو الميل الى أحدهما فى وقت مّا فلم يجد ذلك فى الاجسام التى لديه وانما طلب ذلك لانه طمع ان يجده فيرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم دون ان يقترن به وصف من الاوصاف التى هى منشأ التكثر * فلما أعياه ذلك ونظر الى الاجسام التى هى أقل الاجسام حملا للاوصاف فلم يرها تعرى عن أحد هذين الوصفين بوجه وهما اللذان يعبر عنهما بالثقل والخفة فنظر الى الثقل والخفة هل هما للجسم من حيث هو جسم أو هما لمعنى زائد على الجسمية فظهر له انهما لمعنى زائد على الجسمية لانهما لو كانا للجسم من حيث هو جسم لما وجد جسم الا وهما له ونحن نجد الثقيل لا توجد فيه الخفة والخفيف لا يوجد فيه الثقل وهما لا محالة جسمان ولكل واحد منهما معنى منفرد به عن الآخر زائد على جسميته وذلك المعنى هو الذى به غاير كل واحد منهما الآخر ولولا ذلك لكانا شيأ واحدا من جميع الوجوه * فتبين له ان حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف مركبة من معنيين أحدهما ما يقع فيه الاشتراك منهما جميعا وهو معنى الجسمية والآخر ما تنفرد به حقيقة كل واحد منهما عن الآخر وهو اما الثقل

فى أحدهما واما الخفة فى الآخر المقترنان بمعنى الجسمية أى المعنى الذى يحرك أحدهما علوا والآخر سفلا * وكذلك نظر الى سائر الاجسام من الجمادات والاحياء فرأى ان حقيقة وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ومن شئ آخر زائد على الجسمية اما واحد واما أكثر من واحد فلاحت له صور الاجسام على اختلافها وهو أول مالاح له من العالم الروحانى اذ هى صور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب من النظر العقلى ولاح له فى جملة مالاح من ذلك أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب (وهو الذى تقدم شرحه أولا) لا بد له أيضا من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لان يعمل هذه الاعمال الغريبة التى تختص به من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات وذلك المعنى هو صورته وفصله الذى انفصل به عن سائر الاجسام وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية * وكذلك للشئ الذى يقوم للنبات مقام الحار الغريزى للحيوان شئ يخصه هو فصله وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس النباتية * وكذلك لجميع أجسام الجمادات وهى ماعدا الحيوان والنبات مما فى عالم الكون والفساد شئ يخصها به يفعل كل واحد منها فعله الذى يختص به مثل صنوف الحركات وصدور الكيفيات المحسوسة عنها وذلك الشئ هو فصل كل واحد منها وهو الذى يعبر النظار عنه بالطبيعة * فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذى كان تشوقه اليه أبدا مركبة من معنى الجسمية ومن معنى آخر زائد على الجسمية وأن معنى هذه الجسمية مشترك له ولسائر الاجسام والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به هو وحده * هان عنده معنى الجسمية فاطرحه وتعلق فكره بالمعنى الثانى وهو الذى يعبر عنه بالنفس فتشوق الى التحقق به فالتزم الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الاجسام كلها لا من جهة ماهى أجسام بل من جهة ماهى ذوات صور تلزم عنها خواص وينفصل بها بعضها عن بعض فتتبع ذلك وحصره فى نفسه فرأى أن جملة الاجسام تشترك فى صورة تصدر عنها الافعال ورأى فريقا من تلك الجملة مع مشاركته لها فى تلك الصورة يزيد عليها بصورة أخرى تصدر عنها افعال خاصة به ورأى طائفة من ذلك الفريق مع مشاركتها له فى الصورة الاولى والثانية تزيد عنه بصورة ثالثة تصدر عنها افعال خاصة بها * مثال ذلك ان الاجسام الارضية كلها مثل التراب والحجارة

والمعادن

والمعادن والنبات والحيوان وسائر الاجسام الثقيلة هي جملة واحدة تشترك في صورة واحدة تصدر عنها الحركة الى أسفل مالم يعقها عائق عن النزول ومتى حركت الى جهة العلو بالقسر ثم تركت تحركت بصورتها الى أسفل * وفريق من هذه الجملة وهو النبات والحيوان مع مشاركته الجملة المتقدمة في تلك الصورة يزيد عليها صورة أخرى يصدر عنها التغذي والنمو *(والتغذي هو ان يخلف المغتذي بدل ما تحلل بالفعل منه بواسطة القوة الغاذية التي تحيل ما حصل له كمال الاستعداد بسبب القوة الهاضمة من الغذاء بالقوة الواصل بواسطة الجاذبة الى مشاكلة جوهر المغتذي حفظا لشخصه وتكميلا لمقداره والنمو هو الزيادة بواسطة القوة النامية وهي التي تزيد في أقطار الجسم أعني الطول والعرض والعمق على التناسب الطبيعي بما تدخل في أجزائه من الغذاء)* فهذان الفعلان عامان للنبات والحيوان وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما وهي المعبر عنها بالنفس * وطائفة من هذا الفريق وهو الحيوان خاصة مع مشاركته الفريق المتقدم في الصورة الاولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة يصدر عنها الحس والتنقل من حيز الى آخر * ورأى كل نوع من أنواع الحيوان له خاصية ينحاز بها عن سائر الانواع وينفصل بها متميزا عنها فعلم ان ذلك صادر له عن صورة تخصه هي زائدة عن معنى الصورة المشتركة له ولسائر الحيوان وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مثل ذلك * فتبين له ان هذه الاجسام المحسوسات التي في عالم الكون والفساد بعضها تلتئم حقيقته من معان كثيرة زائدة على معنى الجسمية وبعضها من معان أقل وعلم ان معرفة الاقل أسهل من معرفة الاكثر فطلب أولا الوقوف على حقيقة الشئ الذي تلتئم حقيقته من أقل الاشياء ورأى أن الحيوان والنبات لا تلتئم حقائقها الا من معان كثيرة لتفنن أفعالهما فأخر التفكر في صورهما وكذلك رأى أن أجزاء الارض بعضها أبسط من بعض فقصد منها أبسط ما قدر عليه وكذلك رأى أن الماء شئ قليل التركيب لقلة ما يصدر عن صورته من الافعال وكذلك رأى النار والهواء* وقد كان سبق الى ظنه أولا أن هذه الاربعة يستحيل بعضها الى بعض وأن لها شيأ واحدا تشترك فيه وهو معنى الجسمية وان ذلك الشئ ينبغي ان يكون خلوا من المعاني التي تميز بها كل واحد من هذه الاربعة عن الآخر فلا يمكن ان يتحرك الى

فوق ولا الى أسفل ولا ان يكون حارا ولا باردا ولا ان يكون رطبا ولا يابسا لان كل واحد من هذه الاوصاف لا يعم جميع الاجسام فليست اذن للجسم بما هو جسم فاذا أمكن وجود جسم لا صورة فيه زائدة على الجسمية فليس تكون فيه صفة من هذه الصفات ولا يمكن ان تكون فيه صفة الا وهى تعم سائر الاجسام المتصورة بضروب الصور فنظر هل يجد وصفا واحدا يعم جميع الاجسام حيها وجامدها فلم يجد شيأ يعم الاجسام كلها الا معنى الامتداد الموجود فى جميعها فى الاقطار الثلاثة التى يعبر عنها بالطول والعرض والعمق فعلم ان هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم لكنه لم يتأت له بالحس وجود جسم بهذه الصفة وحدها حتى لا يكون فيه معنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلوا من سائر الصور * ثم تفكر فى هذا الامتداد الى الاقطار الثلاثة هل هو معنى الجسم بعينه وليس ثم معنى آخر أو ليس كذلك فرأى أن وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذى يوجد فيه هذا الامتداد وأن الامتداد وحده لا يمكن ان يقوم بنفسه كما أن ذلك الشئ الممتد لا يمكن ان يقوم بنفسه دون امتداد واعتبر ذلك ببعض الاجسام المحسوسة ذوات الصور كالطين مثلا فرأى انه اذا عمل منه شكل كالكرة مثلا كان له طول وعرض وعمق على قدره ثم ان تلك الكرة بعينها لو أخذت وردت الى شكل مكعب أو بيضى لتبدل ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق وصارت على قدر آخر غير الذى كانت عليه والطين واحد بعينه لم يتبدل غير انه لابد له من طول وعرض وعمق على أى قدر كان ولا يمكن ان يعرى عنها غير انها لتعاقبها عليه تبين له انها معنى على حياله ولكونه لا يعرى بالجملة عنها تبين له انها من حقيقته * فلاح له بهذا الاعتبار ان الجسم بما هو جسم مركب على الحقيقة من معنيين (أحدهما) يقوم منه مقام الطين للكرة فى هذا المثال (والآخر) يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها أو المكعب أو أى شكل كان به وأنه لا يفهم الجسم الا مركبا من هذين المعنيين وأن أحدهما لا يستغنى عن الآخر لكن الذى يمكن ان يتبدل و يتعاقب على أوجه كثيرة (وهو معنى الامتداد) يشبه الصورة التى لسائر الاجسام ذوات الصور والذى يثبت على حال واحدة (وهو الذى ينزل منزلة الطين المتقدم) يشبه معنى الجسمية التى لسائر الاجسام ذوات الصور *(وهذا

الشئ

الشئ الذى هو بمنزله الطين فى هذا المثال هو الذى يسميه النظار المادة والهيولى وهى عارية عن الصور جملة) * فلما انتهى نظره الى هذا الحد وفارق المحسوس بعض مفارقة واشرف على تخوم العالم العقلى استوحش وحن الى ما ألفه من عالم الحس فتقهقر قليلا وترك الجسم على الاطلاق اذ هو أمر لا يدركه الحس ولا يقدر على تناوله واخذ أبسط الاجسام المحسوسة التى شاهدها وهى تلك الاربعة التى كان قد وقف نظره عليها فاول ما نظر الى الماء فرأى انه اذا خلى وما تقتضيه صورته ظهر منه برد محسوس وطلب النزول الى أسفل فاذا سخن اما بالنار واما بحرارة الشمس زال عنه البرد أولا وبقى فيه طلب النزول فاذا أفرط عليه بالتسخين زال عنه طلب النزول الى أسفل وصار يطلب الصعود الى فوق فزال عنه بالجملة الوصفان اللذان كانا أبدا يصدران عنه وعن صورته ولم يعرف من صورته أكثر من صدور هذين الفعلين عنها فلما زال هذان الفعلان بطل حكم الصورة فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عندما ظهرت منه أفعال من شأنها ان تصدر عن صورة أخرى وحدثت له صورة أخرى بعد ان لم تكن وصدر عنه بها أفعال لم تكن من شأنها ان تصدر عنه وهو بصورته الاولى * فعلم بالضرورة ان كل حادث لابد له من محدث فارتسم فى نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساما على العموم دون تفصيل * ثم انه تتبع الصور التى كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لابد لها من فاعل ثم انه نظر الى ذوات الصور فلم ير أنها شئ أكثر من استعداد الجسم لان يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس ههنا الا جسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته ولاح له مثل ذلك فى جميع الصور فتبين له ان الافعال الصادرة عنها ليست فى الحقيقة لها وانما هى لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها (وهذا المعنى الذى لاح له هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به وفى محكم التنزيل فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث

إلى معرفته على التفصيل ولانه بعد لم يكن فارق عالم الحس جعل يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات وهو لا يعلم بعد هل هو واحد أو كثير فتصفح جميع الاجسام التي لديه وهي التي كانت فكرته أبدا فيها فرآها كلها تتكون تارة وتفسد أخرى وما لم يقف على فساد جملته وقف على فساد أجزائه مثل الماء والارض فانه رأى أجزاءهما تفسد بالنار وكذلك الهواء رآه يفسد بشدة البرد حتى يتكون منه ثلج فيسيل ماء وكذلك سائر الاجسام التي كانت لديه لم ير منها شيأ بريئا عن الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار فاطرحها كلها وانتقلت فكرته الى الاجسام السماوية (وانتهى الى هذا النظر على رأس أربعة أسابيع من منشأه وذلك ثمانية وعشرون عاما) فعلم ان السماء وما فيها من الكواكب أجسام لانها ممتدة في الاقطار الثلاثة الطول والعرض والعمق لا ينفك شيء منها عن هذه الصفة وكل ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم فهي اذن كلها أجسام ثم تفكر هل هي ممتدة الى غير نهاية وذاهبة أبدا في الطول والعرض والعمق الى غير نهاية أو هي متناهية محدودة بحدود تنقطع عندها ولا يمكن ان يكون وراءها شيء من الامتداد فتحير في ذلك بعض حيرة * ثم انه بقوة نظره وذكاء خاطره رأى ان جسما لا نهاية له باطل وشيء لا يمكن ومعنى لا يعقل وتقوى هذا الحكم عنده بحجج كثيرة سنحت له بينه و بين نفسه وذلك انه قال * أما هذا الجسم السماوي فهو متناه من الجهة التي تليني والناحية التي وقع عليها حسي فهذا لا أشك فيه لانني أدركه ببصري * وأما الجهة التي تقابل هذه الجهة وهي التي يداخلني فيها الشك فاني أيضا أعلم انه من المحال ان تمتد الى غير نهاية لاني ان تخيلت أن خطين اثنين يبتدآن من هذه الجهة المتناهية ويمران في سمك الجسم الى غير نهاية حسب امتداد الجسم ثم تخيلت ان أحد هذين الخطين قطع منه جزء كبير من ناحية طرفه المتناهي ثم أخذ ما بقي منه وطبق طرفه الذي كان فيه موضع القطع على طرف الخط الذي لم يقطع منه شيء وطبق الخط المقطوع منه على الخط الذي لم يقطع منه شيء وذهب الذهن كذلك معهما الى الجهة التي يقال انها غير متناهية فاما أن نجد الخطين أبدا يمتدان الى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر فيكون الذي قطع منه جزء مساويا للذي لم يقطع منه شيء وهو محال واما ان لا يمتد الناقص معه أبدا بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه

فيكون

فيكون متناهيا فاذا ردّ عليه القدر الذى قطع منه أولا وقد كان متناهيا صار كله متناهيا وحينئذ لا يقصر عن الخط الآخر الذى لم يقطع منه شئ ولا يفضل عليه فيكون اذن مثله وهو متناه فذلك أيضا متناه (فالجسم الذى تفرض فيه هذه الخطوط متناه وكل جسم يمكن ان تفرض فيه هذه الخطوط فكل جسم متناه فاذا فرضنا أن جسما غير متناه فقد فرضنا باطلا ومحالا فلما صح عنده (بفطرته الفائقة التى تنبهت لمثل هذه الحجة) أن جسم السماء متناه أراد ان يعرف على أى شكل هو وكيفية انقطاعه بالسطوح التى تحده فنظر أولا الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة أصغر من تلك وما كان أبعد عن سمت الرأس الى أحد الجانبين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب حتى كانت أصغر الدوائر التى تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احداهما حول القطب الجنوبى وهى مدار سهيل والاخرى حول القطب الشمالى وهى مدار الفرقدين ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه أولا كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح أفقه ومتشابهة الاحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معا ظاهرين له وكان يترقب اذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معا فكان يرى غروبهما معا واطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتبين له بذلك ان الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب الى المشرق بعد مغيبها بالمغرب وما رآه أيضا من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وأنها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الاوقات أقرب الى بصره منها فى وقت آخر ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها واعظامها تختلف عند بصره فيراها فى حال القرب أعظم مما يراها فى حال البعد لاختلاف أبعادها عن مركزه حينئذ بخلافها على الاول فلما لم يكن شئ من ذلك تحقق عنده كرية الشكل ومازال يتصفح حركة القمر فيراها آخذة من المغرب الى المشرق وحركات الكواكب السيارة كذلك حتى تبين له قدر كبير من علم الهيئة وظهر له ان حركاتها لا تكون الا بافلاك كثيرة

كلها منضمنة فى فلك واحد هو أعلاها وهو الذى يحرك الكل من المشرق الى المغرب فى اليوم والليلة (وشرح كيفية انتقاله ومعرفة ذلك يطول وهو مثبوت فى الكتب ولا يحتاج منه فى غرضنا الا للقدر الذى أوردناه) فلما انتهى الى هذه المعرفة ووقف على أن الفلك بجملته وما يحتوى عليه كشئ واحد متصل بعضه ببعض وان جميع الاجسام التى كان ينظر فيها أولا كالارض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هى كلها فى ضمنه وغير خارجة عنه وأنه كله أشبه شئ بشخص من أشخاص الحيوان وما فيه من الكواكب المنيرة هى بمنزلة حواس الحيوان وما فيه من ضروب الافلاك المتصل بعضها ببعض هى بمنزلة أعضاء الحيوان وما فى داخله من عالم الكون والفساد هى بمنزلة ما فى جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات التى كثيرا ما يتكون فيها أيضا حيوان كما يتكون فى العالم الاكبر * فلما تبين له انه كله كشخص واحد فى الحقيقة قائم محتاج الى فاعل مختار واتحدت عنده أجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى اتحدت به عنده الاجسام التى فى عالم الكون والفساد * تفكر فى العالم بجملته هل هو شئ حدث بعد ان لم يكن وخرج الى الوجود بعد العدم أو هو أمر كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر * وذلك انه كان اذا أزمع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة من استحالة وجود لا نهاية له بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لا نهاية له * وكذلك كان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث فهو لا يمكن تقدمه عليها وما لا يمكن أن يتقدم على الحوادث فهو أيضا محدث * واذا أزمع على اعتقاد الحدوث اعترضته عوارض أخر * وذلك انه كان يرى ان معنى حدوثه بعد ان لم يكن لا يفهم الا على معنى ان الزمان تقدمه والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه فاذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان * وكذلك كان يقول اذا كان حادثا فلا بد له من محدث وهذا المحدث الذى أحدثه لم أحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك الطارئ طرأ عليه ولا شئ هنالك غيره أم لتغير حدث فى ذاته فان كان فما الذى أحدث ذلك التغير وما زال يتفكر فى ذلك عدة سنين فتتعارض عنده الحجج ولا يترجح عنده احد الاعتقادين على الآخر فلما أعياه ذلك جعل يتفكر ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين

فلعل

فاعل اللازم عنهما يكون شيأ واحدا فرأى انه ان اعتقد حدوث العالم
وخروجه الى الوجود بعد العدم فاللازم عن ذلك ضرورة انه لا يمكن أن
يخرج الى الوجود بنفسه وأنه لا بدّ له من فاعل يخرجه الى الوجود وأن ذلك
الفاعل لا يمكن أن يدرك بشئ من الحواس لانه لو أدرك بشئ من الحواس لكان
جسما من الاجسام ولو كان جسما من الاجسام لكان من جملة العالم وكان
حادثا واحتاج الى محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى أيضا جسما لاحتاج
الى محدث ثالث والثالث الى رابع ويتسلسل ذلك الى غير نهاية وهو باطل فاذن
لا بدّ للعالم من فاعل ليس بجسم واذا لم يكن جسما فلا سبيل الى ادراكه بشئ
من الحواس لان الحواس الخمس لا تدرك الا الاجسام أو ما يلحق الاجسام واذن
لا يمكن أن يحس فلا يمكن أن يتخيل لان التخيل ليس شيأ الا احضار صور
المحسوسات بعد غيبها واذا لم يكن جسما فصفات الاجسام كلها تستحيل عليه
وأول صفات الاجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق وهو منزه عن ذلك
وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الاجسام واذا كان فاعلا للعالم
فهو لا محالة قادر عليه وعالم به *(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)* ورأى
أيضا انه ان اعتقد قدم العالم وان العدم لم يسبقه وانه لم يزل كما هو فان اللازم
عن ذلك ان حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء اذ هى لم يسبقها سكون
يكون مبدؤها منه وكل حركة لا بدّ لها من محرك ضرورة والمحرك اما أن يكون
قوة سارية فى جسم من الاجسام اما جسم المتحرك نفسه واما جسم آخر خارج
عنه واما ان تكون قوة ليست سارية ولا شائعة فى جسم وكل قوة سارية فى
جسم وشائعة فيه فانها تنقسم بانقسامه وتتضاعف بتضاعفه مثل الثقل فى
الحجر مثلا المحرك له الى أسفل فانه ان قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين
وان زيد عليه آخر مثله زاد فى الثقل آخر مثله فان أمكن أن يتزايد الحجر أبدا الى
غير نهاية كان تزايد هذا الثقل الى غير نهاية وان وصل الحجر الى حدّ ما من العظم
ووقف وصل الثقل أيضا الى ذلك الحدّ ووقف لكنه قد تبرهن ان كل جسم
لا محالة متناه فاذن كل قوة فى جسم لا محالة متناهية فان وجدنا قوة تفعل
فعلا لا نهاية له فهى قوة ليست فى جسم وقد وجدنا الفلك يتحرك أبدا حركة
لا نهاية لها ولا انقطاع اذ فرضناه قديما لا ابتداء له فالواجب على ذلك ان

تكون القوة التي تحركه ليست في جسمه ولا في جسم خارج عنه فهي اذن لشئ بريء عن الاجسام وغير موصوف بشئ من أوصاف الجسمية وقد كان لاح له في نظره الاول في عالم الكون والفساد أن حقيقة وجود كل جسم انما هي من جهة صورته التي هي استعداده لضروب الحركات وان وجوده الذي له من جهة مادته وجود ضعيف لا يكاد يدرك فاذن وجود العالم كله انما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البريء عن المادة وعن صفات الاجسام المنزه عن أن يدركه حس أو يتطرق اليه خيال سبحانه واذا كان فاعلا لحركات الفلك على اختلاف أنواعها فعلا لا تفاوت فيه ولا فتور فهو لا محالة قادر عليه وعالم به فانتهى نظره بهذا الطريق الى ما انتهى اليه بالطريق الاول ولم يضره في ذلك تشككه في قدم العالم أو حدوثه وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه اذ الاتصال والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الاجسام وهو منزه عنها

* ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة الى الصورة اذ لا تقوم الا بها ولا تثبت لها حقيقة دونها وكانت الصورة لا يصح وجودها الا من قبل هذا الفاعل المختار تبين له افتقار جميع الموجودات في وجودها الى هذا الفاعل وانه لا قيام لشئ منها الا به فهو اذن علة لها وهي معلولة له سواء كانت محدثة الوجود بعد أن سبقها العدم او كانت لا ابتداء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم قط فانها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة الى الفاعل ومتعلقة الوجود به ولولا دوامه لم تدم ولولا وجوده لم توجد ولولا قدمه لم تكن قديمة وهو في ذاته غني عنها وبريء منها وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن ان قدرته وقوته غير متناهية وان جميع الاجسام وما يتصل بها أو يتعلق بها ولو ببعض تعلق هو متناه منقطع فاذن العالم كله بما فيه من السموات والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعله وخلقه ومتأخر عنه بالذات وان كانت غير متأخرة بالزمان كما أنك اذا أخذت في قبضتك جسما من الاجسام ثم حركت يدك فان ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة يدك حركة متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات وان كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداؤهما معا فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل

بغير

بغير زمان * (انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) * فلما رأى ان جميع الموجودات فعله تصفحها من قبل ذا تصفحا على طريق الاعتبار فى قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه فتبين له فى أقل الاشياء الموجودة فضلا عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ماقضى منه كل العجب وتحقق عنده ان ذلك لا يصدر الا عن فاعل مختار فى غاية الكمال * (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) * ثم تأمل فى جميع اصناف الحيوان كيف أعطى كل شئ خلقه ثم هداه لاستعماله فلولا انه هداه لاستعمال تلك الاعضاء التى خلقت له فى وجوه المنافع المقصودة به لما انتفع بها الحيوان وكانت كلا عليه فعلم بذلك انه أكرم الكرماء وأرحم الراحماء * ثم انه مهما نظر شيأ من الموجودات له حسن أو بهاء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل أى فضيلة كانت تفكر وعلم انها من فيض ذلك الفاعل المختار جل جلاله ومن جوده ومن فعله فعلم ان الذى له هو فى ذاته اعظم منها وأكمل وأتم وأحسن وأبهى وأدوم وانه لا نسبة لهذه الى تلك فمازال يتتبع صفات الكمال كلها فيراها له وصادرة عنه ويرى انه أحق بها من كل من يوصف بها دونه ويتتبع صفات النقص كلها فيراه بريئا منها ومنزها عنها وكيف لا يكون بريئا منها وليس معنى النقص الا العدم المحض أو ما يتعلق بالعدم وكيف يكون للعدم تعلق أو تلبس بمن هو الموجود المحض الواجب الوجود بذاته المعطى لكل ذى وجود وجوده فلا وجود الا هو فهو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحسن وهو البهاء وهو القدرة وهو العلم وهو هو وكل شئ هالك الا وجهه فانتهت به المعرفة الى هذا الحد على رأس خمسة اسابيع من منشائه وذلك خمسة وثلاثون عاما وقد رسخ فى قلبه من أمر هذا الفاعل ما شغله عن الفكرة فى كل شئ الا فيه وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شئ من الاشياء الا ويرى فيه أثر الصنعة فينتقل بفكره على الفور الى الصانع ويترك المصنوع حتى اشتد شوقه اليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الادنى المحسوس وتعلق بالعالم الارفع المعقول فلما حصل له العلم بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده وهو سبب لوجود جميع الاشياء أراد أن يعلم بأى شئ حصل له

هذا العلم وبأي قوة أدرك هذا الموجود فتصفح حواسه كلها وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى انها كلها لا تدرك شيأ الا جسما أو ما هو في جسم وذلك ان السمع انما يدرك وهي ما يحدث من تموج الهواء عند تصادم الاجسام والبصر انما يدرك الالوان والشم يدرك الروايح والذوق يدرك الطعوم واللمس يدرك الصلابة واللين والخشونة والملاسة وكذلك القوة الخيالية لا تدرك شيأ الا أن يكون له طول وعرض وعمق وهذه المدركات كلها من صفات الاجسام وليس لهذه الحواس ادراك شئ سواها وذلك لانها قوى شائعة في الاجسام ومنقسمة بانقسامها فهي لذلك لا تدرك الا جسما منقسما لان هذه القوة اذا كانت شائعة في شئ منقسم فلا محالة انها اذا أدركت شيأ من الاشياء فانه ينقسم بانقسامها فاذن كل قوة في جسم فانها لا تدرك الا جسما أو ما هو في جسم وقد تبين ان هذا الموجود الواجب الوجود برىء من صفات الاجسام من جميع الجهات فاذن لا سبيل الى ادراكه الا بشئ ليس بجسم ولا هو قوة في جسم ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالاجسام ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ولا متصل بها ولا منفصل عنها وقد كان تبين انه أدركه بذاته ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك ان ذاته التي أدركه بها أمر غير جسماني ولا يجوز عليه شئ من صفات الاجسام وان كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسميات ليست حقيقة ذاته وانما حقيقة ذاته ذلك الشئ الذي أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود فلما علم ان ذاته ليست هذه المتجسمة التي يدركها بحواسه ويحيط بها أديمه هان عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر في تلك الذات الشريفة التي أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود ونظر بذاته في تلك الذات الشريفة هل يمكن أن تبيد أو تفسد وتضمحل أو هي دائمة البقاء فرأى ان الفساد والاضمحلال انما هو من صفات الاجسام بأن تخلع صورة وتلبس أخرى مثل الماء اذا صار هواء والهواء اذا صار ماء والنبات اذا صار ترابا أو رمادا والتراب اذا صار نباتا فهذا هو معنى الفساد وأما الشئ الذي ليس بجسم ولا يحتاج في قوامه الى الجسم وهو منزه بالجملة عن الجسميات فلا يتصور فساده ألبتة فلما ثبت له ان ذاته الحقيقية لا يمكن فسادها أراد أن يعلم كيف يكون حالها اذا أطرحت البدن وتخلت عنه وقد كان تبين له انها

لا

لا تطرحه الا اذا لم يصلح آلة لها فتصفح جميع القوى المدركة فرأى كل واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوة وتارة تكون مدركة بالفعل مثل العين فى حال تغميضها أو اعراضها عن المبصر فانها تكون مدركة بالقوة (ومعنى مدركة بالقوة أنها لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر تكون مدركة بالفعل ومعنى مدركة بالفعل أنها الآن تدرك وكذلك كل واحدة من هذه القوى تكون بالقوة وتكون بالفعل وكل واحدة من هذه القوى ان كانت لم تدرك قط بالفعل فهى ما دامت بالقوة لا تتشوق الى ادراك الشئ المخصوص لانها لم تتعرف به بعد مثل من خلق مكفوف البصر وان كانت قد أدركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة فانها ما دامت بالقوة تشتاق الى الادراك بالفعل لانها قد تعرفت بذلك المدرك وتعلقت به وحنت اليه مثل من كان بصيرا ثم عمى فانه لا يزال يشتاق الى المبصرات وبحسب ما يكون الشئ المدرك أتم وأبهى وأحسن يكون الشوق اليه أكثر والتألم لفقده أعظم ولذلك كان تألم من يفقد بصره بعد الرؤية أعظم من تألم من يفقد شمه اذ الاشياء التى يدركها البصر أتم وأحسن من التى يدركها الشم فان كان فى الاشياء شئ لا نهاية لكماله ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه وهو فوق البهاء والحسن وليس فى الوجود كمال ولا حسن ولا بهاء ولا جمال الا صادر من جهته وفائض من قبله فمن فقد ادراك ذلك الشئ بعد أن تعرف به فلا محالة انه ما دام فاقداله يكون فى آلام لا نهاية لها كما ان من كان مدركا له على الدوام فانه يكون فى لذة لا انفصام لها وغبطة لا غاية وراءها وبهجة وسرور لا نهاية لهما) وقد كان تبين له ان الموجود الواجب الوجود متصف بأوصاف الكمال كلها ومنزه عن صفات النقص وبرىء منها وتبين له ان الشئ الذى به يتوصل الى ادراكه أمر لا يشبه الاجسام ولا يفسد لفسادها فظهر له بذلك ان من كانت له مثل هذه الذات المعدة لمثل هذا الادراك فانه اذا اطرح البدن بالموت فاما ان يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه فهذا اذا فارق البدن لا يتصل بذلك الموجود ولا يتألم لفقده (وأما جميع القوى الجسمانية فانها تبطل ببطلان الجسم فلا تشتاق ايضا الى مقتضيات تلك القوى ولا تحن اليها ولا تتألم بفقدها وهذه حالة البهائم غير الناطقة كلها سواء كانت على صورة الانسان أو لم

تمكن) واما ان يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن قد تعرف بهذا الموجود وعلم ماهو عليه من الكمال والعظمة والسلطان والقدرة إلا انه أعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته وهو على تلك الحال فيحرم المشاهدة وعنده الشوق اليها فيبقى فى عذاب طويل وآلام لانهاية لها فاما ان يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ما تشوّق اليه قبل ذلك واما أن يبقى فى آلامه بقاء سرمديا بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين فى حياته الجسمانية وأما من تعرف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل أن يفارق البدن وأقبل بكليته عليه والتزم الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه ولم يعرض عنه حتى وافته منيته وهو على حال من الاقبال والمشاهدة بالفعل فهو اذا فارق البدن بقى فى لذة لانهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ويزول عنه ما تقتضيه هذه القوى الجسمانية من الامور الحسية التى هى بالاضافة الى تلك الحال آلام وشرور وعوائق فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبدا حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم (واليها أشار الجنيد شيخ الصوفية وامامهم عند موته بقوله لاصحابه هذا وقت يؤخذ منه الله أكبر وأحرم للصلاة) ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه اعراض فكان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود كل ساعة كما هو الا أن يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات أو يخرق سمعه صوت بعض الحيوان أو يعترضه خيال من الخيالات أو يناله ألم فى أحد أعضائه أو يصيبه الجوع أو العطش أو البرد أو الحر أو يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد وكان يخاف أن تفجأه منيته وهو فى حال الاعراض فيفضى الى الشقاء الدائم وألم الحجاب فساءه حاله ذلك واعياه الدواء فجعل يتصفح أنواع الحيوانات كلها وينظر أفعالها وما تسعى فيه لعله يتفطن فى بعضها انها شعرت بهذا الموجود وجعلت تسعى نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته فرآها كلها انما تسعى فى تحصيل غذائها ومقتضى شهواتها من المطعوم

والمشروب

والمشروب والمنكوح والاستظلال والاستدفاء وتجدّ في ذلك ليلها ونهارها الى حين مماتها وانقضاء مدّتها ولم ير شيأ منها ينحرف عن هذا الرأى ولا يسعى لغيره في وقت من الاوقات فبان له بذلك انها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت اليه ولا تعرفت به بوجه من الوجوه وانها كلها صائرة الى العدم أو الى حال شبيه بالعدم فلما حكم بذلك على الحيوان علم ان الحكم له على النبات أولى اذ ليس للنبات من الادراكات الا بعض ما للحيوان واذا كان الاكمل ادراكا لم يصل الى هذه المعرفة فالانقص ادراكا أحرى أن لا يصل مع انه رأى أيضا أن افعال النبات كلها لا تتعدى الغذاء والتوليد * ثم انه بعد ذلك نظر الى الكواكب والافلاك فرآها كلها منتظمة الحركات جارية على نسق ورآها شفافة مضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد فحدس حدساقويا ان لها ذوات سوى اجسامها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وان تلك الذوات العارفة ليست باجسام ولا منطبعة في أجسام مثل ذاته هو العارفة وكيف لا يكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية ويكون لمثله هو على ماهو به من الضعف وشدة الاحتياج الى الامور المحسوسة وانه من جملة الاجسام الفاسدة ومع مابه من النقص فلم يعقه ذلك عن ان تكون ذاته بريئة عن الاجسام لا تفسد فتبين له بذلك ان الاجسام السماوية أولى بذلك وعلم انها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وتشاهده على الدوام بالفعل لان العوائق التي قطعت به هو عن دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لا يوجد مثلها للاجسام السماوية * ثم انه تفكر لم اختص من بين سائر أنواع الحيوان بهذه الذات التي أشبه بها الاجسام السماوية وقد كان تبين له أولا من أمر العناصر واستحالة بعضها الى بعض أن جميع ما على وجه الارض لا يبقى على صورته بل الكون والفساد متعاقبان عليه أبدا وان أكثر هذه الاجسام مختلطة مركبة من أشياء متضادة ولذلك تؤول الى الفساد وانه لا يوجد منها شئ صرفا وما كان منها قريبا من ان يكون صرفا خالصا لا شائبة فيه فهو بعيد عن الفساد جدّا مثل جسد الذهب والياقوت وان الاجسام السماوية بسيطة صرفة ولذلك هي بعيدة عن الفساد والصور لا تتعاقب عليها وتبين له أيضا ان جميع الاجسام التي في عالم الكون والفساد منها ما تتقوم حقيقته بصورة واحدة زائدة على معنى

الجسمية وهذه هى الاسطقصات الاربع ومنها ماتتقوم حقيقته بأكثر من ذلك كالحيوان والنبات فما كان قوام حقيقته بصور أقل كانت أفعاله أقل وبعده من الحياة أكثر فان عدم الصورة جملة لم يكن فيه الى الحياة طريق وصار فى حال شبيهة بالعدم وما كان قوام حقيقته بصور أكثر كانت أفعاله أكثر ودخوله فى حال الحياة أبلغ وان كانت تلك الصورة بحيث لاسبيل الى مفارقتها المادة التى اختصت بها كانت الحياة حينئذ فى غاية الظهور والدوام والقوة فالشئ العديم للصورة جملة هى الهيولى والمادة ولاشئ من الحياة فيها وهى شبيهة بالعدم والشئ المتقوم بصورة واحدة هى الاسطقصات الاربع وهى فى أنزل مراتب الوجود فى عالم الكون والفساد ومنها تتركب الاشياء ذوات الصور الكثيرة وهذه الاسطقصات ضعيفة الحياة جدا اذ ليست تتحرك الاحركة واحدة وانما كانت ضعيفة الحياة لان لكل واحد منها ضدا ظاهر العناد يخالفه فى مقتضى طبيعته ويطلب ان يغير صورته فوجوده لذلك غير متمكن وحياته ضعيفة والنبات أقوى حياة منه والحيوان أظهر حياة منه وذلك ان ما كان من هذه المركبات تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد فلقوته فيه يغلب طبائع الاسطقصات الباقية ويبطل قواها ويصير ذلك المركب فى حكم الاسطقص الغالب فلا يستاهل لاجل ذلك من الحياة الاشياء يسيرا كما ان ذلك الاسطقص لا يستاهل من الحياة الا يسيرا ضعيفا وما كان من هذه المركبات لا تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد منها فان الاسطقصات تكون فيه متعادلة متكافئة فاذن لا يبطل أحدها قوة الآخر بأكثر مما يبطل ذلك الآخر قوته بل يفعل بعضها فى بعض فعلا متساويا فلا يكون فعل أحد الاسطقصات أظهر ولا يستولى عليه أحدها فيكون بعيد الشبه من كل واحد من الاسطقصات فكأنه لا مضادة لصورته فيستاهل للحياة بذلك ومتى زاد هذا الاعتدال وكان أتم وأبعد من الانحراف كان بعده عن أن يوجد له ضد أكثر وكانت حياته أكمل

ولما كان الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب شديد الاعتدال لانه ألطف من الارض والماء وأغلظ من النار والهواء صار فى حكم الوسط ولم يضاد شيأ من الاسطقصات مضادة بينة فاستعد بذلك لصورة الحيوانية فرأى ان الواجب على ذلك ان يكون أعدل ما فى هذه الارواح الحيوانية مستعد الأتم ما يكون من الحياة

الحياة فى عالم الكون والفساد وأن يكون ذلك الروح قريبا من أن يقال انه لا ضد لصورته فيشبه لذلك هذه الاجسام السماوية التى لا ضد لصورها ويكون روح ذلك الحيوان لانه وسط بالحقيقة بين الاسطقصات التى لا تتحرك الى جهة العلو على الاطلاق ولا الى جهة السفل بل لو أمكن ان يجعل فى وسط المسافة التى بين المركز وأعلى ما ينتهى اليه النار فى جهة العلو ولم يطرى عليه فساد لثبت هناك ولم يطلب الصعود ولا النزول ولو تحرك فى المكان لتحرك حول الوسط كما تتحرك الاجسام السماوية ولو تحرك فى الموضع لتحرك على نفسه وكان كرى الشكل اذ لا يمكن غير ذلك فاذن هو شديد الشبه بالاجسام السماوية * ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ولم ير فيها ما يظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجود وقد كان علم من ذاته أنها قد شعرت به قطع بذلك على انه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالاجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع مباين لسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى وأعد لامر عظيم لم يعد له شئ من انواع الحيوان (وكفى به شرفا ان يكون أخس جزئيه وهو الجسمانى أشبه الاشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المنزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير واما أشرف جزئيه فهو الشئ الذى به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشئ العارف أمر ربانى الهى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشئ مما توصف به الاجسام ولا يدرك بشئ من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل الى معرفته بآلة سواه بل يوصل اليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والعلم والمعلوم لا تباين فى شئ من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الاجسام ولواحقها ولا جسم هناك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم) فلما تبين له الوجه الذى اختص به من بين سائر أصناف الحيوان بمشابهة الاجسام السماوية رأى ان الواجب عليه ان يتقبلها ويحاكى أفعالها ويتشبه بها جهده * وكذلك رأى انه بجزئه الاشرف الذى به عرف الموجود الواجب الوجود فيه شبه ما منه من حيث هو منزه عن صفات الاجسام كما ان الواجب الوجود منزه عنها ورأى أيضا انه يجب عليه ان يسعى فى تحصيل صفاته لنفسه من أى وجه أمكن وان يتخلق بأخلاقه ويقتدى بأفعاله ويجد فى تنفيذ ارادته ويسلم الامر له ويرضى بجميع حكمه رضى من قلبه ظاهرا وباطنا بحيث يسر به وان كان مؤلما

لجسمه وضارّاته ومتلفات البدن بالجملة * وكذلك رأى ان فيه شبها من سائر أنواع الحيوان بجزئه الخسيس الذى هو من عالم الكون والفساد وهو البدن المظلم الكثيف الذى يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ورأى ان ذلك البدن لم يخلق له عبثا ولا قرن به لامر باطل وانه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه وهذا التفقد لا يكون منه الا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان فاتجهت عنده الاعمال التى يجب عليه ان يفعلها نحو ثلاثة اغراض * اما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق * واما عمل يتشبه به بالاجسام السماوية * واما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود * فالتشبه الاول يجب عليه من حيث له البدن المظلم ذوا الاعضاء المنقسمة والقوى المختلفة والمنازع المتفننة * والتشبه الثانى يجب عليه من حيث له الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب وهو مبدأ لسائر البدن ولما فيه من القوى * والتشبه الثالث يجب عليه من حيث هو هو اى من حيث هو الذات الذى عرف به ذلك الموجود الواجب الوجود وكان أوّلا قد وقف على ان سعادته وفوزه من الشقاء انما هى فى دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين ثم انه نظر فى الوجه الذى يتأتى له به هذا الدوام فاخرج له النظر أنه يجب عليه الاعمال فى هذه الاقسام الثلاثة من التشبهات (أما التشبه الاول) فلا يحصل له به شئ من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق دونها اذ هو تصرف فى الامور المحسوسة والامور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة وانما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيوانى الذى يحصل به التشبه الثانى بالاجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو من تلك المضرة (وأما التشبه الثانى) فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام لكنها مشاهدة يخالطها شوب اذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت اليها حسب ما يتبين بعد هذا (وأما التشبه الثالث) فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذى لا التفات فيه بوجه من الوجوه الا الى الموجود الواجب الوجود والذى يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت او قليلة الا الذات الواحد الحق الواجب

الوجود

الوجود جل وتعالى وعز فلما تبين له ان مطلوبه الاقصى هو هذا التشبه الثالث وانه لا يحصل له الا بعد التمرن والاعتمال مدة طويلة في التشبه الثاني وان هذه المدة لا تدوم له الا بالتشبه الاول وعلم ان التشبه الاول وان كان عائقا بذاته معينا بالعرض لا بالذات لكنه ضروري ألزم نفسه الا يجعل لها حظا من هذا التشبه الاول الا بقدر الضرورة وهي الكفاية التي لا بقاء للروح الحيواني بأقل منها ووجد ما تدعو اليه الضرورة في بقاء هذا الروح أمرين أحدهما ما يمده به من داخل ويخلف عليه بدل ما تحلل من الغذاء والآخر ما يقيه من خارج ويدفع عنه وجوه الأذى من البرد والحر والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك ورأى انه ان تناول ضروريه من هذه جزافا كيف ما اتفق ربما وقع في السرف وأخذ فوق الكفاية فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر فرأى ان الحزم له ان يفرض لنفسه فيها حدودا لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها وبان له ان هذا الفرض يجب ان يكون في جنس ما يتغذى به وأي شيء يكون وفي مقداره وفي المدة التي تكون بين العودتين اليه فنظر أولا في أجناس ما به يغتذى فرآها ثلاثة اضرب اما نبات لم يكمل نضجه ولم ينته الى غاية تمامه وهي أصناف البقول الرطبة التي يمكن الاغتذاء بها واما ثمرات النبات التي قد تم وتناهى وأخرج بزره ليتكون منه آخر من نوعه حفظا له وهي أصناف الفواكه رطبها ويابسها واما حيوان من الحيوانات التي يغتذى بها اما البرية واما البحرية وكان قد صح عنده ان هذه الاجناس كلها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذي تبين له ان سعادته في القرب منه وطلب التشبه به ولا محالة أن الاغتذاء بها مما يقطعها عن كمالها ويحول بينها وبين الغاية المقصودة بها فكان ذلك اعتراضا على فعل الفاعل وهذا الاعتراض مضاد لما يطلبه من القرب منه والتشبه به فرأى ان الصواب له (لو أمكن) ان يمتنع عن الغذاء جملة واحدة لكنه لم يمكنه ذلك لانه ان امتنع عنه يؤل ذلك الى فساد جسمه فيكون ذلك اعتراضا على فاعله أشد من الاعتراض الاول اذ هو أشرف من تلك الاشياء الأخر التي يكون فسادها سببا لبقائه فاستسهل أيسر الضررين وتسامح في أخف الاعتراضين ورأى ان يأخذ من هذه الاجناس اذا عدمت أيها تيسر له بالقدر الذي يتبين له بعد هذا أما ان كانت كلها موجودة فينبغي له حينئذ ان

يتشبث و يتخيره منهما مالم يكن فى أخذه كبير اعتراض على فعل الفاعل وذلك مثل لحوم الفواكه التى قد تناهت فى الطيب وصلح ما فيها من البذر لتوليد المثل على شرط التحفظ بذلك البزر بأن لا يأكله ولا يفسده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات مثل الصفواء والسبخة ونحوها فان تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات ذات اللحم الغاذى كالتفاح والكمثرى والاجاص ونحوها كان له عند ذلك أن يأخذ امامن الثمرات التى لا يغتذو منها الا نفس البزر كالجوز والقسطل واما من البقول التى لم تصل حد كمالها والشرط عليه فى هذين أن يقصد أكثرها وجودا وأقواها توليدا وأن لا يستأصل أصولها ولا يفنى بزرها فان عدم هذه فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه والشرط عليه فى الحيوان أن يأخذ من أكثره وجودا ولا يستأصل منه نوعا بأسره (هذا ما رآه فى جنس ما يغتذى به) وأما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليها * وأما الزمان الذى بين كل عودتين فرأى انه اذا أخذ حاجته من الغذاء أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يقطع به عن بعض الاعمال التى تجب عليه فى التشبه الثانى وهو الذى يأتى ذكره بعد هذا * وأما ما تدعو اليه الضرورة فى بقاء الروح الحيوانى مما يقيه من خارج فكان الخطب فيه عليه يسيرا اذ كان مكتسيا بالجلود وقد كان له مسكن يقيه مما يرد عليه من خارج فاكتفى بذلك ولم ير الاشتغال به والتزم فى غذائه القوانين التى رسمها لنفسه (وهى التى تقدم شرحها) * ثم أخذ فى العمل الثانى وهو التشبه بالاجسام السماوية والاقتداء بها والتقبل لصفاتها وتتبع أوصافها فانحصرت عنده فى ثلاثة أضرب (الضرب الاول) أوصاف لها بالاضافة الى ما تحتها من عالم الكون والفساد وهى ما تعطيه اياه من التسخين بالذات والتبريد بالعرض والاضاءة والتلطيف والتكثيف الى سائر ما تفعل فيه من الامور التى بها يستعد لفيضان الصور الروحانية عليه من الفاعل الواجب الوجود (والضرب الثانى) أوصاف لها فى ذاتها مثل كونها شفافة ونيرة وطاهرة منزهة عن الكدر وضروب الرجس ومتحركة بالاستدارة بعضها على مركز نفسها وبعضها على مركز غيرها (والضرب الثالث) أوصاف لها بالاضافة الى الموجود الواجب الوجود مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتتشوق اليه وتتصرف بحكمه وتسخر فى تتميم ارادته ولا تتحرك

الاعشيئته وفى قبضته * فجعل يتشبه بها جهده فى كل واحد من هذه الاضرب الثلاثة (أما الضرب الاول) فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه أن لايرى ذا حاجة أوعاهة اومضرة أوذا عائق من الحيوان أوالنبات وهو يقدر على ازالتها عنه الاويزيلها فتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أوتعلق به نبات آخر يؤذيه أوعطش عطشا يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب ان كان مما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذى بفاصل لايضر المؤذى وتعهده بالسقى ما أمكنه * ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع أونشب به ناشط أوتعلق به شوك أوسقط فى عينيه أوأذنيه شئ يؤذيه أومسه ظمأ أوجوع تكفل بازالة ذلك كله عنه جهده وأطعمه وسقاه * ومتى وقع بصره على ماء يسيل الى سقى نبات أوحيوان وقد عاقه عن ممره عائق من حجر سقط فيه أوجرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه ومازال يمعن فى هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية (وأما الضرب الثانى) فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه دوام الطهارة وازالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء فى أكثر الاوقات وتنظيف ما كان من أظفاره واسنانه ومغابن بدنه وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدوافن العطرة وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان كله يتلألأ حسنا وجمالا ونظافة وطيبا * والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسيح بأكنافها وتارة كان يطوف ببيته أو ببعض الكدى أدوارا معدودة امامشيا واما هرولة وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه (واما الضرب الثالث) فكان تشبهه بها فيه أن كان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد أذنيه ويضرب جهده عن تتبع الخيال ويروم بمبلغ طاقته ان لايفكر فى شئ سواه ولايشرك به أحدا ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها فكان اذا اشتد فى الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التى تحتاج الى الآلات الجسمانية وقوى فعل ذاته التى هى بريئة من الجسم فكانت فى بعض الاوقات فكرته قد تخلص عن الشوب ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود ثم تكر عليه القوى الجسمانية فتفسد عليه حاله وترده الى أسفل السافلين فيعود من قبل ذى فان

لحقه ضعف يقطع به عن غرضه تناول بعض الاغذية على الشرائط المذكورة ثم انتقل الى شأنه من التشبه بالاجسام السماوية بالاضرب الثلاثة المذكورة ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده وينازعها وتنازعه وفي الاوقات التي يكون له عليها الظهور وتتخلص فكرته عن الشوب يلوح له شئ من أحوال اهل التشبه الثالث يدعوه لان يطلب التشبه الثالث و يسعى في تحصيله فينظر في صفات الموجود الواجب الوجود وقد كان تبين له أثناء نظره العلمي قبل الشروع في العمل أنها على ضربين (اما صفة ثبوت) كالعلم والقدرة والحكمة (واما صفة سلب) كتنزهه عن الجسميات ولواحقها وما يتعلق بها ولو على بعد وأن صفات الثبوت يشترط فيها هذا التنزيه حتى لا يكون فيها شئ من صفات الاجسام التي من جملتها الكثرة فلا تتكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية بل ترجع كلها الى معنى واحد هي حقيقة ذاته * فجعل يطلب كيف يتشبه به في كل واحد من هذين الضربين (أما صفات الايجاب) فلما علم انها كلها راجعة الى حقيقة ذاته وانه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه اذ الكثرة من صفات الاجسام وعلم أن علمه بذاته ليس معنى زائدا على ذاته بل ذاته هي علمه بذاته وعلمه بذاته هو ذاته تبين له أنه ان أمكنه هو أن يعلم ذاته فليس ذلك العلم الذي علم به ذاته معنى زائدا على ذاته بل هو هو فرأى ان التشبه به في صفة الايجاب هو أن يعلمه فقط دون أن يشرك به شيأ من صفات الاجسام فأخذ نفسه بذلك (وأما صفات السلب) فانها كلها راجعة الى التنزه عن الجسمية فجعل يطرح أوصاف الجسمية عن ذاته وكان قد اطرح منها كثيرا في رياضته المتقدمة التي كان ينحو بها التشبه بالاجسام السماوية الا انه بقي منها بقايا * (كحركة الاستدارة والحركة من أخص صفات الاجسام وكالاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لهما والاهتمام بازالة عوائقهما فان هذه أيضا من صفات الاجسام اذ لا يراها أولا الا بقوة هي جسمانية ثم يكدح في أمرها بقوة جسمانية أيضا) * فاخذ في طرح ذلك كله عن نفسه اذ هي بجملتها مما لا يليق بهذه الحالة التي يطلبها الآن ومازال يقتصر على السكون في قعر مغارته مطرقا غاضا بصره معرضا عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية مجتمع الهم والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة فتى سنح لخياله سانح سواه طارده عن خياله جهده ودافعه وراض نفسه على ذلك

ذلك ودأب فيه مدة طويلة بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغذى فيها ولا يتحرك * وفى خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات الا ذاته فانها كانت لا تغيب عنه فى وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الاول الحق الواجب الوجود فكان يسوءه ذلك و يعلم انه شوب فى المشاهدة المحضة وشركة فى الملاحظة ومازال يطلب الفناء عن نفسه والاخلاص فى مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك وغابت عن ذكره وفكره السموات والارض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد (وهى الذوات العارفة بالموجود) وغابت ذاته فى جملة الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثورا ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائدا على ذاته لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ففهم كلامه وسمع نداه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم واستغرق فى حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

*(فلا تعلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر فان كثيرا من الامور التى قد تخطر على قلوب البشر يتعذر وصفها فكيف بامر لا سبيل الى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره

ولست أعنى بالقلب جسم القلب ولا الروح الذى فى تجويفه بل أعنى به صورة تلك الروح الفائضة بقواها على بدن الانسان فان كل واحد من هذه الثلاثة يقال له قلب ولكن لا سبيل لخطور ذلك الامر على واحد من هذه الثلاثة ولا يتأتى التعبير الا عن ماخطر عليها ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمنزلة من يريد ان يذوق الالوان المصبوغة من حيث هى ألوان و يطلب أن يكون السواد منها حلوا أو حامضا * لكنا مع ذلك لا نخليك عن اشارات نومى بها الى ما شاهده من عجائب ذلك المقام على سبيل ضرب المثال لا على سبيل قرع باب الحقيقة اذ لا سبيل الى التحقق بما فى ذلك المقام الا بالوصول اليه * فاصغ الآن بسمع قلبك وأحدق ببصر عقلك الى ما أشير اليه لعلك تجد منه هديا يلقيك على جادة الطريق * وشرطى عليك ان لا تطلب منى فى هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على أمر

ليس من شأنه ان يلفظ به خطر (فاقول)

انه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير فى الوجود الا الواحد الحى القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عندما أفاق من حاله تلك التى هى شبيهة بالسكر خطر بباله انه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى وان حقيقة ذاته هى ذات الحق وان الشئ الذى كان يظن أولا انه ذاته المغايرة لذات الحق ليست شيأ فى الحقيقة بل ليس ثم شئ الا ذات الحق وان ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الاجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فانه وان نسب الى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيأ سوى نور الشمس وان زال ذلك الجسم زال نوره وبقى نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فاذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى * وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه وان علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فاذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحقة التى كان يراها أولا كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيأ واحدا وكادت هذه الشبهة ترسخ فى نفسه لولا ان تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته فعلم ان هذه الشبهة انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الاجسام وكدورة المحسوسات فان الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هى كلها من صفات الاجسام وتلك الذوات المفارقة العارفة بذات الحق عز وجل لبراءتها عن المادة لا يجب ان يقال انها كثيرة ولا واحدة لان الكثرة انما هى لمغايرة الذوات بعضها لبعض والوحدة أيضا لا تكون الا بالاتصال ولا يفهم شئ من ذلك الا فى المعانى المركبة المتلبسة بالمادة (غير ان العبارة فى هذا الموضع قد تضيق جدا لانك ان عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا أوهم ذلك معنى الكثرة فيها وهى بريئة عن الكثرة وان أنت عبرت بصيغة الافراد أوهم ذلك معنى الاتحاد وهو مستحيل عليها وكأنى بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس فى أعينهم يتحرك فى سلسلة جنونه ويقول لقد أفرطت فى تدقيقك

حتى

حتى انك قد انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول فان من أحكام العقل ان الشيء اما واحد واما كثير فليتئد فى غلوائه وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذى هو بين طباقه بنحو ما اعتبر به حى بن يقظان حيث كان ينظر فيه بنظر فيراه كثيرا كثرة لا تنحصر ولا تدخل تحت حد ثم ينظر بنظر آخر فيراه واحدا وبقى فى ذلك مترددا ولم يمكنه ان يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر وهذا العالم المحسوس منشأ الجمع والافراد وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف فما ظنه بالعالم الالهى الذى لا يقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق فى أمره بلفظ من الالفاظ المسموعة الا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة فلا يعرفه الا من شاهده ولا تثبت حقيقته الا عند من حصل فيه وأما قوله حتى انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه فان العقل الذى يعنيه هو وأمثاله انما هو القوة الناطقة التى تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتقتنص منها المعنى الكلى والعقلاء الذين يعنيهم هم الذين ينظرون بهذا النظر والنمط الذى كلامنا فيه فوق هذا كله فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع الى فريقه الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)* فان كنت ممن يقنع بهذا النوع من التلويح والاشارة الى ما فى العالم الالهى ولا تحمل ألفاظنا من المعانى على ما جرت العادة بها فى تحميلها اياه فنحن نزيدك شيأ مما شاهده حى بن يقظان فى مقام أولى الصدق الذى تقدم ذكره (فنقول) انه بعد الاستغراق المحض والفناء التام وحقيقة الوصول *شاهد للفلك الاعلى الذى لا جسم له ذاتا بريئة عن المادة ليست هى ذات الواحد الحق ولا هى نفس الفلك ولا هى غيرهما وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة من المراء الصقيلة فانها ليست هى الشمس ولا المرآة ولا هى غيرهما ورأى لذات ذلك الفلك المفارقة من الكمال والبها والحسن ما يعظم عن ان يوصف بلسان ويدق عن ان يكسى بحرف أو صوت ورآه فى غاية من اللذة والسرور والغبطة والفرح بمشاهدة ذات الحق جل جلاله *وشاهد أيضا للفلك الذى يليه وهو فلك الكواكب الثابتة ذاتا بريئة عن المادة أيضا ليست هى ذات الواحد الحق ولا ذات الفلك الاعلى

المفارقة ولا نفسه ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة قد
انعكست اليها الصورة من مرآة أخرى مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات أيضا من
البهاء والحسن واللذة مثل ما رأى لتلك التي للفلك الاعلى * وشاهد أيضا للفلك
الذي يلي هذا وهو فلك زحل ذاتا مفارقة للمادة ليست هي شيأ من الذوات التي
شاهدها قبلها ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرءاة قد انعكست
اليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس لمرآة ورأى لهذه الذات أيضا مثل ما رأى
لما قبلها من البهاء واللذة ومازال يشاهد لكل فلك ذاتا مفارقة بريئة عن المادة
ليست هي شيأ من الذوات التي قبلها ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي
تنعكس من مرآة الى مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الافلاك وشاهد لكل
ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء واللذة والفرح ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر الى أن انتهى الى عالم الكون والفساد وهو جميعه
حشو فلك القمر فرأى له ذاتا بريئة عن المادة ليست شيأ من الذوات التي شاهدها
قبلها ولا هي سواها ولهذه الذات سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف فم
في كل فم سبعون ألف لسان يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها
لا يفتر ورأى لهذه الذات التي توهم فيها الكثرة وليست كثيرة من الكمال واللذة
مثل الذي رآه لما قبلها وكأن هذه الذات صورة الشمس التي تظهر في ماء مترجرج
قد انعكست اليها الصورة من آخر المرايا التي انتهى اليها الانعكاس على الترتيب
المتقدم من المرآة الاولى التي قابلت الشمس بعينها ثم شاهد لنفسه ذاتا مفارقة
لو جاز أن تتبعض ذات السبعين ألف وجه لقلنا انها بعضها ولولا ان هذه الذات
حدثت بعد ان لم تكن لقلنا انها هي ولولا اختصاصها ببدنه عند حدوثه لقلنا
انها لم تحدث * وشاهد في هذه الرتبة ذواتا مثل ذاته لأجسام كانت ثم اضمحلت
ولاجسام لم تزل معه في الوجود وهي من الكثرة في حد بحيث لا تتناهى ان جاز أن
يقال لها كثيرة أوهي كلها متحدة ان جاز أن يقال لها واحدة ورأى لذاته ولتلك
الذوات التي في رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية ما لا عين رأت ولا
أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله الا الواصلون
العارفون * وشاهد ذواتا كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها
الخبث وهي مع ذلك مستدبرة للمرايا الصقيلة التي ارتسمت فيها صورة الشمس

ومولية

ومولية عنها بوجوهها ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يقم قط بباله ورآها في آلام لا تنقضي وحسرات لا تمحى قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب * وشاهد ههنا ذواتا سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل وتنعقد ثم تنحل فتثبت فيها وانعم النظر اليها فرأى هولا عظيما وخطبا جسيما وخلقا حثيثا واحكاما بليغا وتسوية ونفخا وانشاء ونسخا فما هو الا ان تثبت قليلا فعادت اليه حواسه وتنبه من حاله تلك التي كانت شبيهة بالغشي وزلت قدمه عن ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الالهي اذ لم يمكن اجتماعهما في حال واحد اذ الدنيا والآخرة كضرتين ان ارضيت احداهما أسخطت الأخرى (فان قلت) يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة أن الذوات المفارقة ان كانت لجسم دائم الوجود لا يفسد كالافلاك كانت هي دائمة الوجود وان كانت لجسم يؤول الى الفساد كالحيوان الناطق فسدت هي واضمحلت وتلاشت حسب ما مثلت به في مرايا الانعكاس فان الصورة لا ثبات لها الا بثبات المرآة فاذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هي (أقول لك) ما أسرع ما نسيت العهد وحلت عن الربط ألم نقدم اليك ان مجال العبارة هنا ضيق وان الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذي توهمته انما أوقعك فيه أن جعلت المثال والممثل به على حكم واحد من جميع الوجوه ولا ينبغي ان يفعل ذلك في اصناف المخاطبات المعتادة فكيف ههنا والشمس ونورها وصورتها وتشكلها والمرايا والصور الحاصلة فيها كلها أمور غير مفارقة للاجسام ولا قوام لها الا بها وفيها فلذلك افتقرت في وجودها اليها وبطلت ببطلانها * وأما الذوات الالهية والارواح الربانية فانها كلها بريئة عن الاجسام ولواحقها ومنزهة غاية التنزيه عنها ولا ارتباط ولا تعلق لها بها وسواء بالاضافة اليها بطلان الاجسام أو ثبوتها ووجودها أو عدمها وانما ارتباطها وتعلقها بذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذي هو أولها ومبدؤها وسببها وموجدها وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والتسرمد ولا حاجة بها الى الاجسام بل الاجسام محتاجة اليها ولو جاز عدمها لعدمت الاجسام فانها هي مباديها كما انه لو جاز أن تعدم ذات الواحد الحق تعالى وتقدس عن ذلك لا اله الا هو لعدمت هذه الذوات كلها ولعدمت الاجسام

ولعدم العالم الحسى بأسره ولم يبق موجود اذ الكل مرتبط بعضه ببعض والعالم المحسوس وان كان تابعا للعالم الالهى شبيه الظل له والعالم الالهى مستغن عنه وبرىء منه فانه مع ذلك قد يستحيل فرض عدمه اذ هو تابع للعالم الالهى وانما فساده أن يبدّل لا أن يعدم بالجملة وبذلك نطق الكتاب العزيز حيث ما وقع هذا المعنى فى تصيير الجبال كالعهن والناس كالفراش وتكوير الشمس والقمر وتفجير البحار يوم تبدّل الارض غير الارض والسموات فهذا القدر الذى أمكننى الآن أن أشير اليك به فيما شاهده حى بن يقظان فى ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من جهة الالفاظ فان ذلك كالمتعذر

وأما تمام خبره فسأتلوه عليك ان شاء الله تعالى وهو انه لما عاد الى العالم المحسوس وذلك بعد جولانه حيث جال سئم تكاليف الحياة واشتدّ شوقه الى الحياة القصوى فجعل يطلب العود الى ذلك المقام بالنحو الذى طلبه اوّلا حتى وصل اليه بأيسر من السعى الذى وصل به اوّلا ودام فيه ثانيا مدّة أطول من الاولى * ثم عاد الى عالم الحس * ثم تكلف الوصول الى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الاولى والثانية وكان دوامه فيه أطول وما زال الوصول الى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة والدوام فيه يزيد طولا مدّة بعد مدّة حتى صار بحيث يصل اليه متى شاء ولا ينفصل عنه الا متى شاء فكان يلازم مقامه ذلك ولا ينثنى عنه الا لضرورة بدنه التى كان قد قللها حتى كان لا يوجد أقل منها وهو فى ذلك كله يتمنى أن يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذى يدعوه الى مفارقة مقامه ذلك فيتخلص الى لذته تخلصا دائما ويبرء عما يجده من الألم عند الاعراض عن مقامه ذلك الى ضرورة البدن وبقى على حالته تلك حتى أناف على سبعة أسابيع من منشائه وذلك خمسون عاما وحينئذ اتفقت له صحبة اسال وكان من قصته معه ما يأتى ذكره بعد هذا ان شاء الله تعالى

ذكروا أن جزيرة قريبة من الجزيرة التى ولد بها حى بن يقظان على أحد القولين المختلفين فى صفة مبدئه انتقلت اليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الانبياء المتقدمين صلوات الله عليهم * وكانت ملة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالامثال المضروبة التى تعطى خيالات تلك الاشياء وتثبت رسومها فى النفوس حسبما جرت به العادة فى مخاطبة الجمهور فما زالت تلك الملة تنتشر

بتلك الجزيرة وتتقوى وتظهر حتى قام بها ملكها وحمل الناس على التزامها * وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة فى الخير يسمى أحدهما اسالا والآخر سلامان فتلقيا تلك الملة وقبلاها أحسن قبول وأخذا أنفسهما بالتزام جميع شرائعها والمواظبة على اعمالها واصطحبا على ذلك وكانا يتفقهان فى بعض الاوقات فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعة فى صفة الله عز وجل وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب (فأما اسال) فكان أشد غوصا على الباطن وأكثر عثورا على المعانى الروحانية وأطمع فى التأويل (وأما سلامان صاحبه) فكان أكثر احتفاظا بالظاهر وأشد بعدا عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل وكلاهما مجد فى الاعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى وكان فى تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على ان الفوز والنجاة فيهما وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة * فتعلق اسال بطلب العزلة ورجح القول بها لما كان فى طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعانى وأكثر ما كان يتأتى له أمله من ذلك بالانفراد * وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ورجح القول بها لما كان فى طباعه من الجبن عن الفكرة والتصرف فكانت ملازمة الجماعة عنده مما يدرء الوسواس ويزيل الظنون المعترضة ويعيذ من همزات الشياطين وكان اختلافهما فى هذا الرأى سبب افتراقهما * وكان اسال قد سمع عن الجزيرة التى ذكر أن حى بن يقظان تكون بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل وان الانفراد بها يتأتى لملتمسه فأجمع على ان يرتحل اليها ويعتزل الناس بها بقية عمره فجمع ما كان له من المال واكترى ببعضه مركبا تحمله الى تلك الجزيرة وفرق باقيه على المساكين وودع صاحبه سلامان وركب متن البحر فحمله الملاحون الى تلك الجزيرة ووضعوه بساحلها وانفصلوا عنه فبقى اسال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل ويعظمه ويقدسه ويفكر فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا فلا ينقطع خاطره ولا تتكدر فكرته واذا احتاج الى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد به جوعته وأقام على تلك الحال مدة وهو فى أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه وكان كل يوم يشاهد من ألطافه ومزايا تحفه وتيسيره عليه فى مطالبه وغذائه ما يثبت يقينه ويقر عينه وكان

فى تلك المدة حى بن يقظان شديد الاستغراق فى مقاماته الكريمة فكان لا يبرح عن مغارته الامرة فى الاسبوع لتناول ماسنح من الغذاء فلذلك لم يعثر عليه اسال باوّل وهلة بل كان يتطوف با كناف تلك الجزيرة ويسيح فى ارجائها فلا يرى انسيا ولا يشاهد أثرا فيزيد بذلك أنسه وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهى فى طلب العزلة والانفراد الى ان اتفق فى بعض تلك الاوقات أن خرج حى بن يقظان لالتماس غذائه واسال قد ألم بتلك الجهة فوقع بصر كل واحد منهما على الآخر * فأما اسال فلم يشك انه من العباد المنقطعين وصل الى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصل هو اليها فخشى ان هو تعرض له وتعرّف به ان يكون ذلك سببا لفساد حاله وعائقا بينه وبين أمله * وأما حى ابن يقظان فلم يدر ما هو لانه لم يره على صورة شئ من الحيوانات التى كان قد عاينها قبل ذلك وكان عليه مدرعة سوداء من شعر وصوف فظن أنها لباس طبيعى فوقف يتعجب منه مليا وولى اسال هاربا منه خيفة أن يشغله عن حاله فاقتفى حى بن يقظان أثره لما كان فى طباعه من البحث عن حقائق الاشياء فلما رآه يشتد فى الهرب خنس عنه وتوارى له حتى ظن اسال انه قد انصرف عنه وتباعد من تلك الجهة فشرع اسال فى الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد حتى شغله ذلك عن كل شئ فجعل حى بن يقظان يتقرب منه قليلا قليلا واسال لا يشعر به حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه و بكاءه يشاهد خضوعه فسمع صوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد مثلها من شئ من أصناف الحيوان ونظر الى اشكاله وتخطيطه فرآه على صورته وتبين له أن المدرعة التى عليه ليست جلدا طبيعيا وانما هى لباس متخذ مثل لباسه هو ولما رأى حسن خشوعه وتضرعه و بكائه لم يشك فى أنه من الذوات العارفة بالحق فتشوق اليه وأراد أن يرى ما عنده وما الذى أوجب بكاءه وتضرعه فزاد فى الدنوّ منه حتى أحس به اسال فاشتدّ فى العدو واشتدّ حى بن يقظان فى أثره حتى التحق به لما كان أعطاه الله من القوّة والبسطة فى العلم والجسم فالتزمه وقبض عليه ولم يمكنه من البراح فلما نظر اليه اسال وهو مكتس بجلود الحيوانات ذوات الاوبار وشعره قد طال حتى جلل كثيرا منه ورأى ما عنده من سرعة الحضر وقوّة البطش فرق منه فرقا شديدا وجعل يستعطفه ويرغب اليه بكلام لا يفهمه حى

ابن

ابن يقظان ولا يدرى ماهو غير أنه يميز فيه شمائل الجزع فكان يؤنسه بأصوات كان قد تعلمها من بعض الحيوانات ويجر يده على راسه ويمسح أعطافه ويتملق اليه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جاش اسال وعلم انه لا يريد به سوءا وكان اسال قديما لمحبته فى علم التأويل قد تعلم أكثر الالسن ومهر فيها فجعل يكلم حى بن يقظان ويسائله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج أفهامه فلا يستطيع وحى بن يقظان فى ذلك كله يتعجب مما يسمع ولا يدرى ماهو غير أنه يظهر له البشر والقبول فاستغرب كل واحد منهما أمر صاحبه وكان عند اسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة فقربه الى حى بن يقظان فلم يدر ماهو لانه لم يكن شاهده قبل ذلك فاكل منه اسال وأشار اليه ليأكل فتفكر حى ابن يقظان فيما كان عقد على نفسه من الشروط فى تناول الغذاء ولم يدر أصل ذلك الشئ الذى قدم له ماهو وهل يجوز له تناوله أم لا فامتنع عن الاكل ولم يزل اسال يرغب اليه ويستعطفه وقد كان أولع به حى بن يقظان فخشى ان دام على امتناعه أن يوحشه فأقدم على ذلك الزاد وأكل منه فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عهوده فى شرط الغذاء وندم على فعله وأراد الانفصال عن اسال والاقبال على شأنه من طلب الرجوع الى مقامه الكريم فلم تتأت له المشاهدة بسرعة فرأى ان يقيم مع اسال فى عالم الحس حتى يقف على حقيقة شأنه ولا يبقى فى نفسه هو نزوع اليه وينصرف بعد ذلك الى مقامه دون أن يشغله شاغل فالتزم صحبة اسال * ولما رأى اسال أيضا انه لا يتكلم أمن من غوائله على دينه ورجى أن يعلمه الكلام والعلم والدين فيكون له بذلك أعظم أجر وزلفى عند الله فشرع اسال فى تعليمه الكلام اولا بأن كان يشير له الى اعيان الموجودات وينطق باسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقترنا بالاشارة حتى علمه الاسماء كلها ودرجه قليلا قليلا حتى تكلم فى أقرب مدة فجعل اسال يسأله عن شأنه ومن أين صار الى تلك الجزيرة فاعلمه حى بن يقظان انه لا يدرى لنفسه ابتداء ولا أبا ولا أما أكثر من الظبية التى ربته ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى الى درجة الوصول فلما سمع اسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عز وجل ووصف له ذات الحق تعالى وجل بأوصافه الحسنى ووصف له ما أمكنه وصفه

مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين والام المحجوبين لم يشك اسال فى أن جميع الاشياء التى وردت فى شريعته من أمر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هى أمثلة هذه التى شاهدها حى بن يقظان فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل ولم يبق عليه مشكل فى الشرع الا تبين له ولا مغلق الا انفتح ولا غامض الا اتضح وصار من أولى الالباب وعند ذلك نظر الى حى بن يقظان بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده انه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فالتزم خدمته والاقتداء به والاخذ باشارته فيما تعارض عنده من الاعمال الشرعية التى كان قد تعلمها فى ملته وجعل حى بن يقظان يستفصحه عن أمره وشأنه فجعل اسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سيرهم قبل وصول الملة اليهم وكيف هى الآن بعد وصولها اليهم ووصف له جميع ما ورد فى الشريعة من وصف العالم الالهى والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط ففهم حى بن يقظان ذلك كله ولم ير فيه شيأ على خلاف ما شاهده فى مقامه الكريم فعلم ان الذى وصف ذلك وجاء به محق فى وصفه صادق فى قوله رسول من عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته ثم جعل يسأله عما جاء به من الفرائض ووظفه من العبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الاعمال الظاهرة فتلقى ذلك والتزمه وأخذ نفسه بادائه امتثالا للامر الذى صح عنده صدق قائله الا انه بقى فى نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدرى وجه الحكمة فيهما (أحدهما) لم ضرب هذا الرسول الامثال للناس فى أكثر ما وصفه من أمر العالم الالهى وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس فى أمر عظيم من التجسيم واعتقاد أشياء من ذات الحق هو منزه عنها وبرىء منها وكذلك فى أمر الثواب والعقاب (والامر الآخر) انه لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للاموال والتوسع فى المأكل حتى تفرغ الناس للباطل بالباطل والاعراض عن الحق وكان رأيه هو أن لا يتناول أحد شيأ الا ما يقيم به الرمق وأما الاموال فلم تكن عنده بمعنى وكان يرى ما فى الشرع من الاحكام فى أمر الاموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ويراه

تطويلا

تطويلا ويقول ان الناس لو فهموا الامر على حقيقته لاعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق واستغنى عن هذا كله ولم يكن لاحد اختصاص بمال يسئل عن زكاته أو تقطع الايدى على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة وكان الذى أوقعه فى ذلك ظنه ان الناس كلهم ذو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ولم يكن يدرى ماهم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأى وضعف العزم وانهم كالانعام بل هم أضل سبيلا فلما اشتد اشفاقه على الناس وطمع أن يكون نجاتهم على يديه حدثت له نية فى الوصول اليهم وايضاح الحق لديهم وتبيينه ففاوض فى ذلك صاحبه اسال وسأله هل تمكنه حيلة فى الوصول اليهم فاعلمه اسال بما هم عليه من نقص الفطرة والاعراض عن أمر الله فلم يتأت له فهم ذلك وبقى فى نفسه تعلق بما كان قد أمّله وطمع اسال ان يهدى الله على يديه طائفة من معارفه المريدين الذين كانوا أقرب الى التخلص من سواهم فساعده على رأيه ورأيا أن يلتزما ساحل البحر ولا يفارقاه ليلا ولا نهارا لعل الله أن يسنى لهما عبورا البحر فالتزما ذلك وابتهلا الى الله تعالى بالدعاء أن يهيئ لهما من أمرهما رشدا فكان من أمر الله عز وجل ان سفينة فى البحر ضلت مسلكها ودفعتها الرياح وتلاطم الامواج الى ساحلها فلما قربت من البر رأى أهلها الرجلين على الشاطئ فدنوا منهما فكلمهم اسال وسألهم ان يحملوهما معهم فأجابوهما الى ذلك وأدخلوهما السفينة فأرسل الله اليهم ريحا رخاء حملت السفينة فى أقرب مدة الى الجزيرة التى قصداها فنزلا بها ودخلا مدينتها واجتمع أصحاب اسال به فعرفهم شأن حى بن يقظان فاشتملوا عليه اشتمالا شديدا وأكبروا أمره واجتمعوا اليه وأعظموه وبجلوه وأعلمه اسال ان تلك الطائفة هم أقرب الى الفهم والذكاء من جميع الناس وانه ان عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهور أعجز وكان رأس تلك الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب اسال الذى كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة فشرع حى بن يقظان فى تعليمهم وبث أسرار الحكمة اليهم فما هو الا أن ترقى عن الظاهر قليلا وأخذ فى وصف ما سبق الى فهمهم خلافه فجعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم عما يأتى به ويتسخطونه فى قلوبهم وان أظهروا له الرضا فى وجهه إكراما لغربته فيهم ومراعاة لحق صاحبهم اسال ومازال حى بن يقظان يستلطفهم

سناه بالتشديد تسنية سهله وفتحه اه م

ليلا ونهارا ويبين لهم الحق سرا وجهارا فلا يزيدهم ذلك الا نفارا مع انهم كانوا محبين فى الخير راغبين فى الحق الا انهم لنقص فطرتهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجهة تحقيقه ولا يلتمسونه من بابه بل كانوا الا يريدون معرفته من طريق أربابه فيئس من اصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم وتصفح طبقات الناس بعد ذلك فرأى كل حزب بما لديهم فرحون قد اتخذوا الههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا فى جمع حطام الدنيا وألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر لا تنجع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدال الا اصرارا وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم فلما رأى سرادق العذاب قد أحاط بهم وظلمات الحجب قد تغشتهم والكل منهم الا اليسير لا يتمسكون من ملتهم الا بالدنيا وقد نبذوا اعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ولم يخافوا يوما تتقلب فيه القلوب والابصار بان له وتحقق على القطع ان مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا يمكن وان تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق وان حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به وانه لا يفوز منهم بالسعادة الاخروية الا الشاذ النادر وهو من أراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأى تعب أعظم وشقاوة أطم ممن اذا تصفحت أعماله من وقت انتباهه من نومه الى حين رجوعه الى الكرى لا تجد منها شيأ الا وهو يلتمس به تحصيل غاية من هذه الامور المحسوسة الخسيسة اما مال يجمعه أو لذة ينالها أو شهوة يقتضيها أو غيظ يتشفى به أو جاه يحرزه أو عمل من أعمال الشرع يتزين به أو يدافع عن رقبته وهى كلها ظلمات بعضها فوق بعض فى بحر لجى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا فلما فهم أحوال الناس وان أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق علم ان الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك ولا يحتمل المزيد

المزيد عليه فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فانصرف الى سلامان وأصحابه فاعتذر لهم عما تكلم به معهم وتبرأ اليهم منه وأعلمهم انه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والاعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيهم والايمان بالمتشابهات والتسليم لها والاعراض عن البدع والاهواء والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الامور وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا وحذرهم عنه غاية التحذير وعلم هو وصاحبه اسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لانجاة لها الا بهذا الطريق وانها ان رفعت عنه الى يفاع الاستبصار اختل ما هي عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها وان هي دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالامن وكانت من أصحاب اليمين وأما السابقون السابقون فأولئك المقربون فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود الى جزيرتهما حتى يسر الله عز وجل عليهما العبور اليها وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه أولا حتى عاد اليه واقتدى به اسال حتى قرب منه أو كاد وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين هذا أيدنا الله واياك بروح منه ما كان من نبأ حي بن يقظان واسال وسلامان وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد في كتاب ولا يسمع في معتاد خطاب وهو من العلم المكنون الذي لا يقبله الا أهل المعرفة بالله ولا يجهله الا أهل الغرة بالله وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح في الضنانة به والشح عليه الا أن الذي سهل علينا افشاء هذا السر وهتك الحجاب ما ظهر في زماننا هذا من آراء مفسدة نبعت بها متفلسفة العصر وصرحت بها حتى انتشرت في البلدان وعم ضررها وخشينا على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الانبياء صلوات الله عليهم وأرادوا تقليد السفهاء أن يظنوا تلك الآراء هي المضنون بها على غير أهلها فيزيد بذلك حبهم فيها وولوعهم بها فرأينا أن نلمع اليهم بطرف من سر الاسرار لنجتذبهم الى جانب التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق ولم نخل مع ذلك ما أودعناه هذه الاوراق اليسيرة من الاسرار عن حجاب لطيف ينهتك سريعا لمن هو من أهله ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه وأنا أسأل

اخوانى الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذرى فيما تساهلت فى تبيينه وتسامحت فى تثبيته فلم أفعل ذلك الالأنى تسنمت شواهق يزل الطرف عن مرآها وأردت تقريب الكلام فيها على وجه الترتيب والتشويق فى دخول الطريق وأسأل الله التجاوز والعفو وأن يوردنا من المعرفة به الصفو انه منعم كريم والسلام عليك أيها الأخ المفترض اسعافه ورحمة الله وبركاته

قد تم بحول الله سبحانه طبع رسالة الحكمة المشرقية المعنونة برسالة حى بن يقظان بمطبعة ادارة الوطن فى يوم الخميس ٢٧ ربيع الثانى من سنة ١٢٩٩ هى وهو الكتاب الرابع مما انجز طبعه على ذمة المشتركين فلم تزل رسالة قشعت السحاب عن سماء الحكمة فاضاءت شموسها وناهيك بأفكار مبلغ العلم فيها انها الرئيس أبى على بن سينا فجزا الله ارباب ادارة الوطن ما يقوم بكفؤ هذه التحفة العامة النفع حبالبث المعارف فى افئدة الوطنيين وكان تصحيحها بمعرفة مصحح سابقها (٤٠٥)
والحمد لله على التمام والصلاة
والسلام على سيدنا محمد
وآله وصحبه الائمة
الاعلام
تم

(ذكر ابن خلكان فى ترجمة أبى على بن سينا ان هذه الرسالة من مؤلفاته فلعلها كانت بالفارسية وترجمها ناقلها هذا رحم الله الجميع)